الدكتور عزت السيد أحمد

فلسفة أخلاق التخلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور عزت السيد أحمد

فلسفة أخلاق التخلف

دار فن وعلم

طبعة 2018 بلس

☆الكتاب : **فلسفة أخلاق التخلف**☆

☆ الكاتب: **الدكتور عزت السيد أحمد** ☆

☆ عدد الصفحات: ١٨٠ صفحة ☆

☆ قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤ ☆

☆ تصميم الغلاف بريشة المؤلف ☆

☆ **الحقوق جميعها محفوظة** ☆

☆ تمنع طباعة هذا الكتاب أو بعضَه بأيِّ وسيلةٍ ☆

☆ من وسائل الطِّباعةِ والنَّشر والإعلام ☆

☆ من دون موافقةٍ خطيَّة من المؤلِّف ☆

☆ النَّاشر: **دار فن وعلم** ☆

☆ طرابلس **٢٠١٨م** ☆

الإهداء

إلى مَن بقي من الشرفاء في الأمّة

وأخصّ بالذِّكر ذوي الهمّة

أُهدي ثمرة جهدي

أخلاق التخلف

مقدّمة

منذ أكثر من عشرين سنة وأنا أهجس بكتابة كتاب أو بحث مطول في كتاب موسع أتناول فيه أخلاق الحضارة، الفكرة التي لم تطرح من قبل ولا حتى الآن فيما أظن وإن كانت ثمة الكثير من المقاربات لها والاقتراب منها من باحثين من مختلف الملل والنحل والأعراق والقوميات.

ومنذ ذٰلك الحين والأفكار والمعطيات والشواهد والأمثلة كلها حاضرة في عقلي وذاكرتي تنتظر فقط اللحظة التي أشرع فيها بالكتابة. ولٰكنَّ هٰذه اللحظة حَتَّىٰ الآن لم تأتِ. مشاغل كثيرة وأوليات تتقدم عليها دائما وفي كل لحظة أفكر فيها في الشروع في كتابة هٰذا الموضوع.

ولٰكن في الوقت ذاته كانت لدي مقالات عديدة كتبتها منذ نحو ثلاثين سنة تتناول أخلاق التخلف... مضمونيًّا وفي مخيلتي هي أبحاث أو رؤى في أخلاف التخلف أو فلسفة أخلاق التخلف، ولٰكنَّهَا مضمومة إِلىٰ بعضها منذ ذٰلك الحين في مجلد تحت عنوان؛ «العرب ومجتمعهم اليوم»، العنوان أوليٌّ ولم يكن نهائيًّا، وفيه دلالة عَلىٰ الواقع العربي المتردي والأخلاق السائدة فيه بما هو مجتمع متخلف أو أمة متخلفة.

المجتمعات المتخلفة سواء في المبدأ. ولهذا يعني أنَّ أخلاق التخلف واحدة في المبدأ في مختلف المتخلفات من المجتمعات.، ومن ثُمَّ فإنَّما يصدق عَلىٰ العرب يصدق عَلىٰ غيرهم. ولذلك لم يكن ثَمَّةَ مشكلة في الانتقال من الخاص إلىٰ العام وتعميم وضعية العرب التخلفية عَلىٰ المجتمع المتخلف مع ما يستحق الأمر من تحفظات تمت الإشارة إليها.

وعَلىٰ أيحال، وإن كانت هٰذه الرؤى التي أقدمها تستحق أن تكون رؤية أو نظرية فلسفية في أخلاق التخلف بالمجمل والعموم فإني لا أصبو إلىٰ ذٰلك أصلاً ولا فصلاً. المهم عندي الرؤية ولا يهمني تصنيفها إن كانت فلسفة أو رأياً دون الفلسفة.

هٰذا من جانب، ومن جاب آخر فإنَّ المجتمعات المتخلفة كثيرة، والأمم المتخلفة كثيرة، والذي يعنينا منها أمتي، وأمتي وحسب. وإن قلت لا يعنيني أن تسمى فلسفة في أخلاق التخلف أو لا تسمى فلن الذي يعنيني هو توصيف الواقع العربي والإسلامي المتخلف والمأسوية التي يرزح تحتها، أعني أني أمارس عملية نقدية، وأصرخ صرخة احتجاج في وجه هٰذا الواقع الذي تعيشه أمتي بهدف تحريض أكمتي عَلىٰ اليقظة والنهوض،بهدف إيقاظها، وليس بهدف التَّنظير الفلسفي.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

تشرين الثاني ٢٠١٨م

التَّخلُّف
وفلسفة أخلاق التَّخلُّف

أخلاق التخلف

الأخلاق أمر وفلسفة الأخلاق أمر، وكلاهما من المباحث المهمة والمهمة جدًّا في العقائد وفي الفلسفة عبر التاريخ، حَتَّىٰ لتشكل الأخلاق دائماً العمود الفقري من أي عقيدة وأي فلسفة، بل ثَمَّةَ من يساوي بَيْنَ الأخلاق والدين. حسبك ما نسب إِلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدين المعاملة»[1].

إنَّ شيوع هٰذه العبارة عَلىٰ أَنَّهَا حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وثَمَّةَ مثلها في النسب من جهة المبدأ يدل عَلىٰ مَدَىٰ أهميَّة الأخلاق في الإسلام وفي الدين عموماً. وبالضرورة ليس كل ما ينسب إِلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون مهما وإنما هناك قاعدة في التَّمييز بَيْنَ مهم ما ينسب وعديم الأهميَّة مما ينسب. وتلكم مسألة أُخرىٰ.

الذي يجعلنا نقول إنَّ هٰذا دليل عَلىٰ أهميَّة هٰذه العبارة «الدين المعاملة» هو مَدَىٰ تطابقها وانسجامها مع القرآن الكريم وأحاديث أُخرىٰ مشابهة في المبدأ والغاية. وعَلىٰ رأس ذٰلك أنَّ الله تَعَالىٰ لما وصف رسوله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم وصفه بقوله: «وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ»[2].

(١) . هٰذا الكلام ليس حديثاً شريفاً وإنما هو منتشر بَيْنَ المسلمين عَلىٰ أَنَّهُ حديث شريف.

(٢) . القرآن الكريم . سورة القلم . الآية ٤ .

وفي الحديث الشَّريف ما رواه **البخاري** عن **معاوية** رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من خيركم أحسنكم خلقاً». ولا ننسى الحديث الشهير جدًّا الذي رواه الإمام **مالك** في الموطأ وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣]. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم منِّي مجلساً يوم القيامة؟ فأعادها ثلاثاً أو مرتين. قالوا: نعم يا رسول الله. قال: أحسنكم خلقاً»[٤].

أهميَّة الأخلاق مسألةٌ في النِّقاش وفوق الجدل وفوق أيِّ اعتراض، يكفي أنَّهَا عماد الدين أي دين. وحَتَّىٰ عَلىٰ افتراض عدم وجود الدين فالأخلاق هي عماد الحياة الإنسانيَّة الفرديَّة والجمعيَّة. وقد أصاب **أحمد شوقي** كبد الحقيقة بقوله:

وَإِنَّمَا الأُمُمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُوُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذهَبُوا

حاول أن تتخيل الحياة الإنسانيَّة من غير أخلاق!!

يجمع الفلاسفة والحكماء المؤمنون منهم والملاحدة عَلىٰ استحالة استمرار الحياة الإنسانيَّة من دون الأخلاق. ولذلك حَتَّىٰ الفلسفات الإلحاديَّة التي سعت وتسعى لإقامة مجتمعات إلحاديَّة لم تستطع تجاوز الأخلاق؛ الأخلاق نفسها، ولم تستطع أن تضع أخلاقاً بديلة عن منظومة الأخلاق الدِّينيَّة التي توافقت عليها الأديان تقريباً، ولٰكنَّهُم حاولوا صبغها بتحليلات وتفسيرات ماديَّة أو منطقيَّة، ومع لجوئهم إلىٰ قوَّة القانون لتكريس الإلزام الأخلاقي إلا أَنَّهُم لم يجدوا بدًّا من تحليلات تحاول جعل الإنسان يؤمن بأنَّ الإلزام الأخلاقي نابع من الفرد.

(٣) . رواه مالك في الموطأ، وقال ابن عبد البر هو متصل.

(٤) . الحديث رواه الإمام أحمد وجوَّد إسناده الهيثمي.

فما الأخلاق؟

مفهوم الأخلاق

الأخلاق مثل سائر الاصطلاحات يبدأ تحديدها من أساسها اللغوي، ومنطقيًّا كما أكرر مراراً من المستبعد أن تبتعد الدلالة الاصطلاحيَّة عن الأصل اللغوي أو الدلالة اللغوية، وإلا لكانت الأمر عبثيًّا... الدلالة الاصطلاحيَّة انبثاق من الأصل اللغويَّة والدلالة اللغويَّة مع بعض الامتداد والتحديد أو التشديد أو التدقيق أو التركيز في جهة دلاليَّة ما. ولٰكن من المؤكد وجود بعض الاستثناءات، والاسم يكفي؛ استثناءات، أي القاعدة هي ما سبق الكلام فيه، والاستثناء شذوذ وندرة.

لغة: الأخلاق جمعٌ مفرده خُلق. والخلق في سائر معاجم اللغة العربيَّة الكبرى «حالٌ للنفْس رَاسِخَةٌ تصدر عنها الأفعالُ من خيرٍ أو شرٍّ من غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورويَّةٍ»(٥). وهٰذا التعريف وجدناه عند سائر المفكرين المسلمين القدماء، مثل **الجاحظ والتوحيدي ومسكويه والغزالي** وغيرهم. وهي في الحقيقة من أهم تعريفات الأخلاق حَتَّىٰ بوصفها اصطلاحاً وليس فقط مسألة أصل لغوي.

لننظر عَلىٰ سبيل كيف فسر **الغزالي** كبير فلاسفة الحضارة الإسلاميَّة هٰذا التعريف، قال: «الخلقُ عبارةٌ عن هيئةٍ في النَّفس راسخةٍ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إِلىٰ فكرٍ ورويَّةٍ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سُمِّيت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان

(٥) . راجع مادة خلق في لسان العرب، في تاج العروس، في أساس البلاغة، في الكليات للكفوي.

الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً، وإنَّمَا قلنا إنَّهَا هيئة راسخة لأنَّ من يصدر منه بذل المال عَلىٰ النُّدور لحاجةٍ عارضةٍ لا يقال خلقه السَّخاء، ما لم يثبت ذٰلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنَّمَا اشترطنا أن تصدر الأفعال بسهولة من غير روية لأنَّ من تكلَّف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد ورويَّة لا يقال خلقه السَّخاء والحلم»[٦].

«والحقُّ أنَّ الإمام **الغزالي** لم يبتعد بهذا التَّعريف عن التَّعريفات المعاصرة للأخلاق عَلىٰ تعدُّدها وتباينها، ذٰلك أَنَّهُ ركَّز مفهومه للأخلاق عَلىٰ الفكرة الجوهريَّة التي يقوم عليها الفعل الأخلاقي ويصدر عنها، وهي الرسوخ في النفس والتّلقائية، وأعني بذلك الوجدان والنية، إذ الفعل الأخلاقي العرضي ليس موجباً لوصف فاعله بأَنَّهُ أخلاقي، أو غير أخلاقي، كما أنَّ إطالة التَّفكير وتكلف الجهد لدفع الذات إلىٰ الفعل الأخلاقي ليس كافياً لاعتبار صاحب الفعل متخلِّقاً به»[٧].

الأخلاق جمعاً هي جمع خُلُق، وهي اسم الجنس جرياً عَلىٰ عادة اللغة العربية، ولذلك نقول الأخلاق وفلسفة الأخلاق وقوانين الأخلاق... والأخلاق بما هي جمع خلق وبما هي اسم جنس هي مجموعة السلوكات والأفعال التي يسمى كل واحد منها خلقاً يمكن أن يحكم عليه بالخير أو الشر، بالجودة أو القبح، بالحسن والسوء... وتكون في مجملها منظومة متكاملة في الفرد وأيضاً في الجماعة تؤدي إلىٰ صوغ شخصيَّة الفرد أو الجماعة بخصائص نفسيَّة معيَّنة تجعلنا

---

(٦) . الغزالي: **إحياء علوم الدين** . دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت . ج٣ . ص٥٣.

(٧) . عزت السيد أحمد: **مقومات الأخلاق عند الغزالي** . مجلة التراث العربي . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ٥٢ . ١٩٩٣م.

نحكم من خلالها عَلىٰ الفرد أو الجماعة بأنَّهُ خلوق أو غير خلوق. فسلوك أخلاقيٌّ واحدٌ لا يحدِّد شخصيَّة الفرد ولا الجماعة، وإنَّمَا الذي يحدِّد شخصيته هو مجموع سلوكاته الأخلاقيَّة.

من المهم هنا قبل مغادرة مفهوم الخلق والأخلاق أن نعرض لمسألة ملتبسة عند الكثيرين، وهي مسألة الفضيلة والفضائل وعلاقتها بالأخلاق.

يرى الكثيرون وعَلىٰ رأسهم معاجم اللغة أنَّ «الفضيلة تطلق عَلىٰ الدرجة الرفيعة من الفضل والخُلق». وقد قسموها ولم يخطوا في ذٰلك إلىٰ قسمين:

فضائل إنسانيَّة تقوم عَلىٰ العلاقات الإنسانيَّة والمشاعر الإنسانيَّة الإنسانيَّة بَيْنَ البشر عَلىٰ أساس بشريتهم كرقّة الطبع، وشرف النفس، والرغبة في البرِّ والنفور من الشرِّ... وهلمَّ عَلىٰ هٰذا المنوال بالجرِّ.

فضائل ربانيَّة هي ذاتها الفضائل الإنسانيَّة بالمعنى المشار إليه من قبل، ولٰكنَّهَا تقوم عَلىٰ إيمان الإنسان بالله وتكون ممارستها وفقها وسلوكها مبنيَّة عَلىٰ قصد نيل رضى الله تَعَالىٰ.

أي إنَّ الفضيلة إذ يقوم بها الإنسان من جهة الإيمان بالله وقصد رضى الله فإنَّهَا تكون متسامية عَلىٰ الغرض والهدف والنوايا النفعيَّة الدنيوية. والفضائل كلها تقدير إلهي في الأصل، وذا شأن آخر ليس لهٰذا وقته ولا مكانه.

لنعد إلىٰ تعريف الفضيلة الذي يصفها بأنَّهُ درجة رفيعة في الفضل أو الخلق. هنا يوازي ولا يساوي التعريف بَيْنَ الفضل والخلق. وأنا شخصيًّا من أنصار أَنَّهُ لا يوجد في اللغة العربيَّة لفظان متطابقا المعنى. ولذلك لا بُدَّ أنَّ ثَمَّةَ فرق بَيْنَ الفضائل والأخلاق؛ هٰذه شيء وهٰذه شيء آخر.

ولٰكن تعالوا ننظر إلىٰ الأمر من زاوية أُخرىٰ. الإنسان هو مجمل بني آدم، قد يكون ذكراً وقد يكون أنثى، ليس الذكر رجلاً وإنَّمَا الذكر طفل وشاب ورجل وكهل وعجوز... وسليم ومريض وطويل وقصير وسمين... يعني ذٰلك أَنَّهُ لا يوجد تطابق بَيْنَ المفردات، ولكلٍّ درجة أو نوع اسمه الخاص، وكذلك في سائر مضامين الأفكار.

فما الفرق بَيْنَ الفضيلة والخلق؟

في المستوى الأول من التَّمييز؛ الخلق والأخلاق اسم جنس، مثل إنسان. وما اعتادت العرب أن تقول خلق إيجابي وخلق سلبي، ولا حَتَّىٰ خلق سيء وخلق جيد، وهٰذا الاستخدام بهٰذه الطَّريق استخدام حديث. وإنما كانت تسمي الأخلاق الإيجابيَّة فضائل، والأخلاق السَّلبيَّة رذائل. فالفضيلة هي الخلق متجسِّداً سلوكاً محموداً، والرذيلة عكسها وهي الخلق متجسِّداً سلوكاً مذموماً.

في المستوى الثَّاني من التَّمييز بَيْنَ الخلق والفضيلة أنَّ الخلق هو اسم السلوك مطلقاً والفضيلة هي هٰذا السلوك ذاته إذا كان نابعاً من سموٍّ في الممارسة وليس محض اعتياد أو اضطرار، فالفضيلة ملازمة في الأصل للتفضيل من جهة، وللفضل أي الزيادة من جهة ثانية، وفي كليهما ما يؤكد ما ذهبت إليه في بيان الفضيلة. وفي لسان العرب «الفَضْل والفَضِيلة ضدُّ النَّقْص والنَّقِيصة، والجمع فُضُول. وهو فاضِل ورجل فَضَّال ومُفَضَّل كثير الفَضْل والفَضِيلة الدَّرَجة الرفيعة في الفَضْل»[٨].

(٨) . ابن منظور: **لسان العرب** ـ دار إحياء التراث العربي/ مؤسسة التاريخ العربي . بيروت . ط ٣ . ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣م.

في الحالين كليهما الفضيلة والفضائل ليست بديلاً عن الأخلاق وإنما هي تجلٍ من تجليات السلوكات الأخلاقية؛ إما أنها اسم للجيد كنها أو أنها الفعل الأخلاقي الذي ينبع من النَّفس عن طيب ورغبة وميل وحب، ولذلك ذهب بعضهم وخاصة المعاجم العربيَّة الحديثة إلىٰ أنَّ الفضيلة هي «مَيْلٌ ثابِت إلى الخير أو قُوَّةٌ ينزع الإنسانُ بها إلى سُلوك الطَّريق القَويم، دَرَجةٌ رَفيعة في حُسْن الخُلُق».

الأخلاق الفردية والأخلاق الجمعية

الأخلاق الفرديَّة معروفة لدى سائر البشر بغض النظر عن طبيعة المعرفة وصوابيتها ودرجاتها. ولٰكنَّهَا معروفة لدى سائر البشر. ولٰكنَّ أكثرهم لا يعرفون أنَّ هناك أخلاق جمعيَّة.

وللضرورة لا بُدَّ من التمييز بداية بَيْنَ الأخلاق الجمعيَّة والأخلاق الاجتماعية. الفرق بَيْنَهما شاسع واسع، مع ما بَيْنَهما من نقاط تماس واتصال واشتراك. الأخلاق الاجتماعيَّة شيء والجمعيَّة شيء آخر.

الأخلاق الاجتماعيَّة ولا أطيل فيها هي مجموعة القيم أو السلوكات الأخلاقيَّة ذات الصبغة الاجتماعية، وأغلب القيم الأخلاقيَّة اجتماعية، وليست كلها. خلاف فروع الأخلاق الأُخرىٰ: الأخلاق التربوية، الأخلاق المهنية، الأخلاق العلمية... وغيرها، فهٰذه الفروع من الأخلاق محدود وضيقة جدًّا إذا ما قورنت بالأخلاق الاجتماعية.

أمَّا الأخلاق الجمعيَّة فهي ممارسة السلوك الأخلاقي ليس ممارسة جمعيَّة بل توافق الجماعة عليه بوصفة قيمة أخلاقيَّة مشتركة. وهٰذا في حقيقة الأمر لب موضوعنا في هٰذا الكتاب.

ليست أخلاق الأمة أو أخلاق الجماعة إلا مجموع أخلاق أفرادها... فأخلاق الجماعة أو الأخلاق الجمعيَّة هي مجموع سلوك أفرادها. المهم الانتباه إليه في هٰذا الشأن أنَّ الأخلاق الجمعيَّة هي انعكاس للعقليَّة الجمعيَّة بمكوناتها السياسيَّة والاقتصاديَّة والتربويَّة والدينيَّة وغير ذٰلك. وهٰذه العقليَّة الجمعية، ومن ثُمَّ الأخلاق الجمعية، ليست ثابتة ثباتاً مطلقاً وإنما هي متغيرة بتغير الظروف التَّحضُّر و التَّخلُّف وسائر مكونات للعقليَّة الجمعيَّة وما يطرأ عليها من تغيرات بتغير ظروف الزمان وصروفه.

في كل زمان وكل مكان الأخلاق الفرديَّة سابقة عَلىٰ الأخلاق الجمعيَّة ومتقدمة عليها وأرقى منها، ولٰكنَّهَا في كل زمان وكل مكان خاضعة للعقليَّة الجمعيَّة الخلاق الجمعية. الأسبقيَّة شيء والقوة والسلطة شيء آخر.

الأخلاق الجمعيَّة لها سلطة وسطوة عَلىٰ الأخلاق الفرديَّة لأَنَّهَا أقوى منها وأشد منها حضوراً وظهوراً. كل فرد يؤمن بأن الصدق واجب أخلاقي لا يجوز تجاوزه ولا مخالفته، والكل يعطيك محاضرات طويلة عريضة في أهميَّة الصدق، والكل تقريباً مجبر عَلىٰ الكذب في مجتمع متخلف أو ضاعت فيها القيم وانقلبت. والكل ينتقد هٰذا التناقض والكل يقع في هٰذا التناقض في المجتمع ذاته.

الأمر ليس في الصِّدق والكذب تحديداً، إنَّهُ ماثل في مختلف القيم الأخلاقية، وخاصة منها الأخلاق الاجتماعية؛ الكل مثلاً يشكو من غلاء المهور، وعندما يطلب مهر ابنته أو أخته لا يستطيع إلا أن يطلب مثلما يطلب الآخرون عَلىٰ أقل تقدير، عَلىٰ الرَّغْمِ من شدة رفضه وإدانته لارتفاع المهور.

وعَلىٰ ذٰلك يمكن أن تتابع في سائر القيم الأخلاقية. هٰذه القيم الأخلاقيَّة قيمها ثابتة، وأكثر القيم الأخلاقيَّة تتسم بنوع من المطلقيَّة، ولٰكنَّ الوضعيَّة التَّاريخيَّة للمجتمع هي أو المجتمع أو كلاهما معاً يتلاعب بدلالات القيم وأشكالها فيفرغها من مضامينها أو يُفْعِمُهَا بمضامينها، تبعاً للوضعيَّة التَّاريخيَّة للمجتمع أو الأمَّة. وعَلىٰ هٰذا الأساس تنشأ ما تسمَّىٰ أخلاق الحضارة وأخلاق التَّخلُّف .

ولٰكن في الوقت ذاته هناك فروق بَيْنَ أخلاق المجتمعات. كيف يمكن تفسيرها؟ وهل أخلاق المجتمعات بتباياتها هي أخلاق جمعيَّة أم أخلاق اجتماعية؟

ثَمَّةَ أكثر من مسألة تستدعي التوضيح هنا. الأخلاق بالمطلق تنقسم إلىٰ قسمين قسم يُسَمَّىٰ الأخلاق المطلقة أو قيم أخلاقيَّة تتسم بالمطلقيَّة، وقسمٌ يُسَمَّىٰ الأخلاق النسبيَّة أو قيم أخلاقيَّة تتسم بالنسبية.

الأخلاق المطلقة فوق الزمان والمكان والظروف والمعطيات والشروط... الصدق صدق في كل زمان ومكان وتحت أيِّ ظرف وشرط. وكذلك شأن الكذب والأمانة والخداع...

الأخلاق النسبيَّة نوعان نوع بعموميته نسبي بغض النظر عن الاعتبارات الخارجيَّة كالتعاون والمساعدة والتسامح وكثير من الأخلاق الاجتماعيَّة أو ما يمكن تسميته العادات الأخلاقيَّة من قبيل أدبيات أو آداب الطعام والسلام واللقاء والاجتماع والمناسبات الاجتماعيَّة والدينيَّة وهلم جرًّا.

أخلاق مطلقة نسبية، في الحقيقة لا يوجد أخلاق مطلقة نسبيَّة ولا أخلاق نسبيَّة مطلقة ولا مطلقاً. وإنما يمكن أن تكون قيمة أخلاقيَّة ما مطلقة

ولٰكن لظرف ما يمكن التعامل معها أو تحويلها إلىٰ نسبية، بمعنى أنَّ العمل بعكسها يكون ضرورة أو واجباً. خذ الخداع مثلاً، فهو قيمة مطلقة ولٰكنَّ في ظروف الحرب يتم اعتبار الخداع قيمة أخلاقيَّة إيجابية، ورُبَّما يجب ذٰلك. وكذلك الأمر بعض القيم الأخلاقيَّة الأُخرىٰ المطلقة.

أخلاق نسبيَّة مطلقة الحقيقة أنَّ الأخلاق النسبيَّة أو القيم الأخلاقيَّة النسبيَّة يمكن أن تكون مطلقة، ولٰكنَّ طبيعة الجماعة أو الأمَّة هي التي تكسبها طبيعتها النسبية. وقولي قبل لا توجد أخلاق نسبيَّة مطلقة ولا مطلقاً أعني به أَنَّهُ لا توجد أخلاق نسبيَّة دائمة النسبيَّة ولا مطلقة النسبية. أصلاً ومنطقيًّا فإنَّ قولك بأنها نسبيَّة بالمطلق يعني أَنَّهَا مطلقة.

عَلىٰ أيِّ حالٍ ثَمَّةَ من يعترض عَلىٰ القول بأخلاق نسبيَّة سواء من الشَّرق أو الغرب، ويرون أنَّ الأخلاق كلها مطلقة. والمعترضون في الحقيقة يخلطون بَيْنَ المعطيات والمضحك أَنَّهُم في دحضهم القول بأخلاق نسبيَّة يزعمون أنَّ القائلين بأخلاق نسبيَّة يخلطون بَيْنَ المعطيات والأنواع.

عَلىٰ أيِّ حال ومهما يكن من أمر فإنَّهُ في حين يجوز القول بأنَّ الأخلاق مطلقة، فإنَّهُ من غير الجائز ولا المقبول مطلقاً القول بأنَّ الأخلاق نسبية، وإنما الصواب بأنه إلىٰ جانب الأخلاق المطلقة هناك أخلاق نسبيَّة عَلىٰ نحو ما أبنَّا. القول بوجود أخلاق نسبيَّة لا يقلل من شأن الدين ولا يرفع من شأنه، والمشكلة ليست بالقول بوجود فئة من الأخلاق نسبيَّة وإنَّمَا المشكلة بالقائل وطبيعته وغاياته ونواياه.

الأخلاق المطلقة مطلقة أي فوق الزمان والمكان، أما الأخلاق النسبيَّة فنسبيَّتها عائدة لأكثر من سبب منها: طبيعة المجتمع وعقليته، أو

قل الجماعة أو الأمَّة، ومنها طبيعة الظُّروف والمعطيات التَّاريخيَّة المحيطة بالمجتمع أو الجماعة أو الأمَّة، ومنها الظُّروف الطَّارئة والاستثنائيَّة التي يتعرَّض لها المجتمع أو الجماعة كالحروب والكوارث أو غيرها مما يصح عليه وصف الظَّرف الاستثنائي.

السُّلوكات الأخلاقيَّة التي تنتجها الظُّروف هي الأخلاق الجمعية، ولهذه الأخلاق هي القابلة للتَّغيُّر وهي التَّعبير عن حال المجتمع النَّفسيَّة في ظرفه ووقته، بَيْنَما الأخلاق الاجتماعيَّة وجه من أوجه الأخلاق بالمطلق، تخضع لما تخضع له سائر المنظومة الأخلاقيَّة من تغيرات تبعاً للظُّروف والمعطيات التَّاريخيَّة والاستثنائية.

أخلاق الحضارة وأخلاق التَّخلُّف

من غير المألوف أن تجد بحثاً أو كتاباً يحمل عنوان: أخلاق الحضارة، أو أخلاق التَّخلُّف . ورُبَّما يكون لهذا الكتاب أول كتاب وبحث يحمل لهذا العنوان. وإن اختص بأخلاق التَّخلُّف وحدها فإنَّهُ ضمناً يعكس أخلاق الحضارة، ولا يكفي لهذا في حقيقة الأمر فأخلاق الحضارة تستحقُّ بحثاً مستقلاً.

ولكن إن كنت مختصاً أو بحثت الإنترنت فستجد الكثير من الأبحاث والمقالات وقليلا من الكتب التي تربط بَيْنَ الأخلاق والحضارة من مداخل متعددة؛ الأخلاق والحضارة مثلاً هو كتاب لأستاذنا عادل العوا[٩]. والعنوان نفسه عنوان لعدد من الأبحاث، وستجد دور الأخلاق في الحضارة، والأخلاق

(٩) . الدكتور عادل العوا: **أخلاق الحضارة** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٨٩م.

أساس الحضارة... وهلم جرًّا من هٰذا القبيل، ولٰكنَّ لا أظنك ستجد أخلاق الحضارة ولا أخلاق التَّخلُّف .

عَلىٰ أي حال، أثر الأخلاق الحضارة أو التَّخلُّف مسألة أُخرىٰ غير التي نهدف إليه هنا وفي عنوان أخلاق التَّخلُّف وحَتَّىٰ أخلاق الحضارة. من غير الممكن ألا تكون هناك تلامسات وتقاطعات ومشتركات، ولٰكنَّ الجهة الدلالية، السِّمة الدَّلالية، بؤرة الفكرة، مختلفة تماماً.

الأخلاق موجودة في كل زمان ومكان بما هو متفق عليه ولا يقبل الجدال أصلاً. وثَمَّةَ أخلاق مطلقة وطائفة من الأخلاق نسبية. وقلنا بأخلاق جمعيَّة وأخلاق اجتماعية. أخلاق التَّخلُّف هي الأخلاق التي تسود في الجماعة أو المجتمع وهو في حالة التَّخلُّف الحضاري. والعكس صحيح، أخلاق الحضارة هي الأخلاق التي تسود في الجماعة أو الأمة في حال كون الأمة متحضرة.

في الحالين كليهما لا تتغير مضامين القيم الأخلاقيَّة أو المفاهيم الأخلاقية، ولٰكن تتغير الممارسات والسلوكات الأخلاقية، يزداد ظهور ممارسات أخلاقيَّة أكثر من غيرها، وينقص غالباً ما يقابلها من ممارسات أَو سلوكات أخلاقية. الممارسات والسلوكات التي تزداد في طور التَّحضُّر تتناقص في طور التَّخلُّف ، والتي تنقص في طور التَّحضُّر تزداد في طور التَّقدُّم. هٰذا قانون عام لا مطلق، أي بالضَّرورة هناك استثناءات وانحرافات معياريَّة نتيجة الطَّبيعة النفسيَّة للجماعة أو المجتمع، ونتيجة الظُّروف الاستثنائيَّة التي يتعرَّض لها في أيِّ مرحلة أو طور.

قلت قبل قليل لن تتغير مضامين المفاهيم الأخلاقيَّة فالصدق سيظل هو الصدق، وسيظل قيمة إيجابية، وفضيلة، وسيظل واجباً... ولٰكن في المجتمع

المتخلِّف لن يتوافر الصدق كثيراً... فيما من سمات أخلاق الحضارة الصدق في كل شيء.

المفاهيم الأخلاقيَّة وخاصة المطلقة منها لا يمكن لأحد أن يغير مضمونها أو قيمتها ولا في أي مجتمع ولا في أي زمان، ولٰكنَّ الناس في المجتمع المتخلِّف لا تمارسها، لا تسلكها، ليس بالمطلق وإنما بالعموم.

وإلىٰ جانب تقلص ونقصان ممارسة السلوكات الأخلاقيَّة الإيجابيَّة في المجتمع المتخلِّف، والعكس صحيح، فإنَّ المجتمع المتخلِّف يسبغ عَلىٰ هٰذه الممارسات تفسيرات وتبريرات متناسبة مع عقليَّة المجتمع وعقيدته والظروف التاريخيَّة والاستثنائيَّة التي يكون فيها... من قلب الواقع يُوْجِدُ ما يبرر به لنفسه ولغيره عدم الصدق، وعدم الأمانة، وكثرة الكذب... وتلكم ما يسمى في علم النفس بالحيل الدفاعية. لا يستطيع أن يقول إن الصدق حرام، أو غلط، أو خطأ... لا يستطيع أن يغير قيم المفاهيم الأخلاقية، ولٰكنَّهُ يستطيع أن يقدم مختلف أنواع المبررات والذرائع التي تجعله مرتاح البال في أفعاله وسلوكاته المتنافية مع الأخلاق الحميدة أو الإيجابية.

أخلاق التَّخلُّف هي أخلاق الأمَّة جماعات وأفراداً عندما تكون الأمة في حالة التَّخلُّف والتَّردِّي الحضاري. والعكس صحيح في أخلاق الحضارة. ومن الضَّروري الإشارة هنا إلىٰ أنَّ عبارة أخلاق التَّخلُّف كما هي تعني أخلاق الأمَّة وعقليَّة الأمَّة وهي في حالة التَّخلُّف فإنَّهَا بمعنى من المعاني تنصبُّ عَلىٰ السُّلوك الأخلاقي الفردي أو الجمعي مهما كانت صفة الفرد أو الأمَّة ووضعيَّة أيٍّ منهما عَلىٰ سلم الحضارة والرقي.

أعني بذلك أَنَّهُ يمكن إلىٰ حدٍّ كبيرٍ المساواة بَيْنَ أخلاق التَّخلُّف والسُّلوك الأخلاقي المتخلِّف.

أعني بذلك من جديد أنَّ أخلاق التَّخلُّف هي السلوكات الأخلاقيَّة المتخلِّفة بغضِّ النَّظر عن فاعلها ومرتبته وموضعه ومكانته.

ومن الجدير الحديث فيه الآن هو ضرورة التمييز بَيْنَ الأخلاق السلبيَّة والأخلاق الإيجابيَّة من جهة وأخلاق التَّخلُّف وأخلاق الحضارة من جهة ثانية.

سيظنُّ بعض وبعض أصلاً يعتقد أنَّ أخلاق الحضارة هي الأخلاق الإيجابيَّة وأنَّ أخلاق التَّخلُّف هي الأخلاق السَّلبية. وهٰذا وهم لا أساس له من الصحة. الأخلاق الإيجابيَّة والأخلاق السَّلبيَّة أي الفضائل والرذائل بمعنى من المعاني موجودة في كل زمان ومكان. ومع أَنَّهُ في المجتمع المتحضر تكثر ممارسات الأخلاق الإيجابيَّة وفي المجتمع المتخلِّف تكثر ممارسات الأخلاق السَّلبيَّة إلا أَنَّهُ لا يصحُّ القول بأنَّ الأخلاق السَّلبيَّة هي أخلاق التَّخلُّف ، ولا أنَّ الأخلاق الإيجابيَّة هي أخلاق الحضارة.

أخلاق التَّخلُّف وأخلاق الحضارة هي بنيَّة الجماعة أو الأمة النَّفسيَّة في التَّعامل مع الأخلاق، ولذلك قلت غير مرَّة في أكثر من موضع إنَّ أخلاق الحضارة هي عاكس سلوكي لعقليَّة الأمة في حال التَّحضُّر، وكذلك أخلاق التَّخلُّف هي عاكس سلوكي لعقليَّة الأمة في حالة التَّخلُّف، عاكس وليس بديلاً ولا صورة لها، فالعقليَّة هي الوعاء الشَّامل ومما يشتمل عليه الأخلاق، وسوىٰ الأخلاق كثير جدًّا كالعادات والتَّقاليد والأعراف والحكم والأمثال والفنون والقيم الجماليَّة والتَّربويَّة والنَّفسيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة وهلم جرًّا.

فلسفة الأخلاق

فلسفة الأخلاق وعلم الأخلاق اصطلاحان لمدلول واحد. بعضهم يستخدم علم الأخلاق وبعضهم يستخدم فلسفة الأخلاق، وليس لهٰذا مكان التفصيل بَيْنَهما ولا وقت ولا مناقشتهما والفرق بَيْنَهما.

أرجِّح فلسفة الأخلاق لأنَّ الأخلاق معياريَّة يصعب وضعها في نسق علم ويصعب أن يكون علم قادراً عَلىٰ قولبة الأخلاق بقوالب قوانين شأن العلوم أو الموضوعات التي تتناولها العلوم.

من محاولة بعض هم استخدام لفظ علم الأخلاق يبدو لنا واضحاً أن علم الأخلاق أو فلسفة الأخلاق هي الأنساق والضوابط والقوانين التي تحاول تأطير الأخلاق ضمن منظومة أو منظومات مضبوطة بغية تحليلها وتركيبها وفهمها والبناء عليها والاستنتاج منها والاعتماد عليها في التنبؤات مثلاً أو المقارنات أو المقايسات أو غير ذٰلك مما يتمُّ العمل عليه في أيِّ علمٍ من العلوم.

بهذا المعنى فلسفة الأخلاق هي العلم الذي يتناول الأخلاق، ولٰكنَّ بسبب طبيعة الأخلاق يبدو وعَلىٰ الأقل حَتَّىٰ الآن فإنَّ قيام علم للأخلاق أمر متعذر، لا أظنه محالاً في المستقبل، ولٰكنَّهُ حَتَّىٰ الآن من المحال. ولذلك تعذر أو صعب استخدام علم لهٰذا الموضوع، وصح استخدام فلسفة لما تتمتع به كلمة فلسفة من مرونة في هٰذا الشأن من جهة، ولما تتضمنه كلمة فلسفة قدرة استيعابيَّة أكبر من محض العلم. فالفلسفة يمكن أن تقوم مقام العلم وتضيف أشياء وقدرات وعمليات لا يمكن للعلم القيام بها.

وإذا كان العلم نسقاً واحداً توافقيًّا تكون إضافات العلماء فيه تراكميَّة عموديَّة غير تمايزيَّة فإنَّ الفلسفة فرديَّة كل فيلسوف نسق معرفي مستقل، لا

توجد إضافات تراكميَّة عموديَّة في الفلسفيَّة وإنما إضافات تمايزيَّة إن صحت فيها التراكميَّة فهي تراكميَّة تجاوريَّة وليست تراكميَّة عمودية.

ولذلك ما صحَّ القول بعلم فلان الفيزيائي أو الكيميائي أو الرياضي، ولٰكنَّ ذٰلك هو الصحيح ولا سواه في الفلسفة ومنها الفلسفة الأخلاقية، ومن ذٰلك قولنا فلسفة فلان الأخلاقية، وفلسفة فلان الأخلاقية... ولذلك صار لدينا دلالة جديدة للفلسفة الأخلاقيَّة أو فلسفة الأخلاق. جديدة هنا الآن وليست جديدة في الأصل ولا الدلالة. وهو أن الفلسفة الأخلاقيَّة هي رؤية الفيلسوف كل فيلسوف ونظريته في الأخلاق، وعلاقتها مع مذهبه الفلسفيَّة إن كان له مذهب أو بخصوصيته فيلسوف أخلاق. والفلسفة الأخلاقيَّة بالمجمل أيضاً هي تاريخ الفلسفات الأخلاقية.

لا ينفصل عن ذٰلك وجود عدد من الفلسفة تشترك أو تتمحور حول منهج أو طريقة في الفلسفة الأخلاقية، وعدد آخر غيرها في طريقة أُخرىٰ... وهٰكَذا، ومن ذٰلك أمكن القول بفلسفة الأخلاق الحدسية، فلسفة الأخلاق العقلية، فلسفة الأخلاق الدينية، فلسفة الأخلاق المثالية، فلسفة الأخلاق الوجودية... وهلم جرًّا. وفي ذٰلك كله تفاصيل وتفريعات وتنويعات كثيرة ليس هٰذا مكانها ولا تعنينا هنا، حسبنا ما أتينا عليه.

التَّخلُّف

المفهوم الأخير الذي يستدعي الإيضاح هنا هو مفهوم التَّخلُّف ، كون موضوع الكتاب هو أخلاق التَّخلُّف أو فلسفة أخلاق التَّخلُّف .

التَّخلُّف لغة التأخر. واصطلاحاً أيضاً هو التأخر عن الآخرين. ولٰكنَّهُ التأخر بالوعي الحضاري والممارسة الحضاريَّة والإنتاج الحضاري...

ولٰكنَّ هٰذا التحديد غير كافٍ في نظري. توجد مئات التعريفات لهٰذا التَّخلُّف ، ومئات النظريَّة في تفسير التَّخلُّف ... وأكثر ذٰلك كله فذلكات ومطمطات أيديولوجيَّة وتنظيريَّة تقترب من الحقيقة حينا وتبتعد عنها أحياناً، وتلامس الحقيقة من جوانب وتجافيها من جوانب. قل من لامس الحقيقة في هٰذا الشأن مع صحة أكثر ما يقولون من توصيفات في التعريفات والنظريات والتنظيرات.

التَّحضُّر و التَّخلُّف مسألة أدوار حضارية، لا يمكن أن يكون العالم أجمعه متطوراً ولا بحال من الأحوال، هناك دائماً عبر التاريخ أمة واحدة متحضرة وهٰذا الاستثناء الذي كان للعرب والمسلمين ولم يكن لغيرهم، أو اثنتان رائدتان متحضرتان متنافستان تسيطران عَلىٰ العالم كله مباشرة وغير مباشرة، والعالم كله سيكون متخلفاً بالضَّرورة التَّاريخيَّة والضَّرورة الواقعية.

بعد اتضاح هٰذه الصُّورة قل ما شئت من تحليلات وتوصيفات وتفسيرات للتَّخلُّف وأسبابه ونتائجه، فمساحة القول مفتوحة.

التَّخلُّف من وجهة نظري هو عجز عن مواكبة الحضارة، هو إخفاق في ميادين الحياة كلها؛ العلمية والاقتصادية والعسكرية والسياسية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية... عجز في كل الميادين لا في ميدان واحدة. فالتخلف بنية كاملة وليست جزئيَّة ولا اجتزائيَّة. فإذا كانت الأمة متحضرة وكان لديها عجز وتقصير في جانب أو ميدان من الميادين فهو عجز وتقصير وخلل في هٰذا الميدان أو القطاع وليس تخلُّفاً. وفي المقابل فإنَّ الأمَّة أو المجتمع المتخلِّف متخلِّف بالجملة والتَّفاصيل فإذا كان ثَمَّةَ ميدان أو قطاع متطور فهذا مظهر خادع وطفرة عابرة.

يأتي التخلف، عموماً لا بالمطلق، مرحلة لا بُدَّ منها تسترخي الأمة فيها بعد فترة العطاء والحركة الدؤوب طيلة فترة تسنمها سدة الحضارة؛ في طور الحضارة تستنزف الأمة كل طاقاتها وقدراتها وإمكاناتها في العطاء فتصل إلىٰ مرة الفراغ والعجز.

المهم في الأمر أنَّ طور التخلف هو ضرورة أو حتمية تاريخية للأمة فترة النشاط والعطاء، ولٰكنَّ التحضر ليس حتمية تاريخية. وفي ذٰلك تفاصيل كثيرة وطويلة قد يكون لي معها وقفة موسعة إن شاء الله تَعَالىٰ.

أرض البصل

كلها رؤوس ولكن...!

هٰذا الفصل مكتوب وأكثر فصول هٰذا الكتاب، ما عدا ما سيشار إلىٰ تاريخه، في أواخر الثَّمانيات وأوائل التسعينيات، ولم أعثر عَلىٰ تاريخ كتابته عَلىٰ غير عادتي ولٰكنَّهُ موجود بَيْنَ أوراقي في الشام، والشام بعيدة عني اليوم بعداً هائلاً. ولٰكنَّهُ نشر مرة: أَرض البصل؛ كلها رؤوس ولكنها بلا جذور . الثقافة الأُسبوعية . دمشق . العدد ٩ . في ١٩٩٦/٣/١٦م.

من اللمح الرَّائعة في مسرح الشَّوك «مسرح **دريد ونهاد**» مشهد التَّرشيح لانتخاب (البيك) من مسرحية «غربة». قال (البيك) للمعلم بعدما شاهد كلَّ الأهالي يرشِّحون أنفسهم لهٰذا المنصب:

ـ «أترى؟! كلهم رؤوس/ زعماء. فمن أين آتي لهم بشعب؟!».

لقد لامست هٰذه العبارة جرحاً أليماً في أعماق نفوسنا؛ جرحاً لا يني يلتئم حَتَّىٰ ينفتق من تلقاء ذاته، وكأَنَّهُ غير قابل للشفاء، كَأَنَّهُ أحد عناصر تركيبتنا الفيزيولوجية... لقد ضحك الجمهور حينها، ولدى كلِّ إعادةٍ لهٰذا المشهد سيضحكون.

أتعرفون لماذا؟

لأَنَّهُم نجوا من الفخ عَلىٰ حدِّ تفسير **هنري برجسون**، لم يقعوا في مصيدة الانكشاف؛ انكشاف رغباتهم المتخلخلة في ثنايا أفكارهم؛ ضحكوا لأَنَّهُم لم يُضحك عليهم من انفضاح أمرهم كما حدث لشعب (البيك) هٰذا.

هٰذه هي حقيقتنا؛ كأرض البصل كلها رؤوس، سلطويون بالفطرة، الأمر والنَّهي شيءٌ صميميٌّ من تركيبتنا النَّفسيَّة، ويبدو لنا أنَّ التَّسلُّط والقمع حقٌ لا ينبغي أن نُنَازَعهُ. أما كيف تحلُّ مشكلة التداخل في ممارسة هٰذا الحق فهي

بسيطة وسهلة، يحلُّها المثل العاميُّ القائل: «كلُّ دِيْكٍ عَلىٰ مزبلته صيَّاح»، فكلُّ واحدٍ يمارس استبداديته في دائرته وميدانه، وضمن دوامه الرسمي، وهناك من يحقُّ له ممارسة حقِّه التَّسلُّطي، الاستبدادي، خارج أوقات الدَّوام الرسمي.

هٰذه هي حقيقة مجتمعنا العربي والمسلم في هٰذا العصر، مثل أرض البصل؛ كلها رؤوس، ولٰكنَّهَا بلا جذور، ولا تجد منها إلا رائحتها التي تخرِّش الأنوف وتجعل دمع العين عَلىٰ الرَّغْمِ منه ينسكب.

لا حاجة للتَّذكير ـ فيما أظنُّ ـ بأنَّ هٰذا الدِّيك الصَّياح دالَّةٌ رمزيةٌ بإمكانك أن تضع مكانها ما يخطر في بالك من مدلول يتغيَّر بتغيُّر ريش الديك وألوانه؛ فقد يكون موظف بشباك البريد، وقد يكون شرطيًّا، وقد يكون أباً أو أستاذاً أو أخاً أو غير ذٰلك مما تحمله الوظائف الاجتماعية من أدوارٍ متعدِّدة ومتباينة.

ولذلك لا عجب أبداً في أن ترى الأمي الجاهل يأمر الأستاذ الجامعي وينهاه، ويوقفه باستعدادٍ وأدبٍ أمامه، وإذا رأى في يده سيجارة شزره بشدة ولقنَّه درساً في الأخلاق وآداب التعامل والسلوك، ورُبَّما انزعج منه فأجَّل معاملته أيَّاماً حسوماً عقاباً له عَلىٰ قلَّة أدبه وافتقاره إلىٰ اللباقة والكياسة في التَّعامل مع موظَّفٍ يؤدِّي وظيفته الرَّسميَّة. ولا عجب أيضاً في أن ترى إلىٰ المفكر أو الأديب أو الشَّاعر الذي يهزُّ العقول كلامه، ويطرب النفوس بيانه... وهو يقف باستعدادٍ ويداه خلف ظهره أمام من يفكُّ الحرف بالجهد ليقول له مرغماً، أي الأستاذ يقول لهٰذا الموظف الغر الجاهل:

ـ «أمرك أستاذ، حاضر أستاذ... هل تتأخر معاملتي يا أستاذنا؟... أين أذهب أستاذ؟ ومن أين آتي يا أستاذ؟».

ولا فرق عند هٰؤلاء بَيْنَ المتوشِّح بالأناقة والمرقَّش بالرثِّ البالي. ولٰكن لكلٍّ منهما دوره ووظيفته؛ فالتحكم بالأنيق يكون مثار الافتخار لهٰذا الموظف بَيْنَ زملائه وأصدقائه الذين يفجئهم كلَّ يومٍ بحديثه عن كيفية تعقيده واحداً يشبه أبناء الملوك بحسن رونقه وأنافته وَذٰلكَ بإرساله من مكان إلىٰ مكان دون حاجة إلىٰ ذٰلك... أمَّا ذو الرثِّ فهو ميدان آخر لتنفيث عقد النقص والنزوع الاستبدادي من دون خوف.

كان المواطن ـ عندما يراجع دائرة... ـ يرتدي أبهى ما عنده، أمَّا الآن فلا يدري ماذا يفعل، وإذا اشتدت الحيرة أو طالت فرُبَّما يحرِّر نفسه بالذهاب حرًّا من غير ثياب.

ولأنَّنا لا نعرف كوامن أنفسنا نظنُّ أنَّ الذين تضطرنا الظُّروف إلىٰ التَّعامل معهم هم فقط الغليظون في تعاملهم، الرَّتَابِيُّوُنَ الذين يعقِّدون الأمور ويعرقلونها من غير ما مسوِّغٍ، المعقدون الذين يحلو لهم التحكم بغيرهم ويلتذذون بتعذيب الآخرين، وننسى أنفسنا، لا ننتبه إلىٰ تذمُّر الآخرين من استبداديتنا، وإن انتبهنا استغربنا، ورُبَّما دهشنا من التَّذمُّر من أوامرنا وتعليماتنا التي هي حقٌّ لنا وواجب علينا.

نعم، إننا نعتقد أنَّ من حقِّنا استبعاد الآخرين ومن واجبنا تقويمهم بالعصا، من حقنا أن نحسب أنفسنا (مارشالات) والناس عساكر عندنا، ومن حقنا أن نتحكم بأقواتهم وأرزاقهم وكأننا ننفق عليهم من جيوبنا، نخال أن من واجب من نتعامل معهم أن يقدموا لنا فروض الطاعة كل لحظة وساعة، ولولا الخوف من الله لفرضنا عليهم أن يصلوا لنا كل يوم ركعتين.

قد نكون محقِّين في عدم انتباهنا، لأنَّ استبداديتنا لا تتجلَّى بوضوحٍ وصراحةٍ وجلاءٍ بشكلٍ دائمٍ بوصفنا من عامة الناس الذين لم تُنط بهم أية مسؤولية . صغيرة أو كبيرة . تجعلنا أصحاب كلمةٍ، ولو شكليةٍ، في تسيير معاملة أو إيقافها، لأنَّ غالبية هٰذه الفئة من الناس قد انطبعت عَلىٰ عادة التَّسلُّط والاستبداد المرتبط مستواها بمستوى وظائفهم أو أدوارهم الاجتماعية.

ولٰكن، ألا ترانا نبالغ عندما نعدُّ الاستبداد فطرة فينا؟

إذا أردنا ما يمليه المنطق والعقل لوجدنا أنفسنا مبالغين جدًّا، ومتطرِّفين في هٰذا الحكم لأنَّ الفطرة لا تفترق من أمَّةٍ إلىٰ أمَّةٍ أُخرىٰ، ولٰكنَّ الواقع يبرِّر تطرفنا ويقدِّم لنا الإجابة معللةً.

عَلىٰ الرَّغْمِ من ارتباط ذٰلك بعقليتي الشَّرق والغرب، والبعد التاريخي لهٰذا الانشعاب، والبنى التاريخيَّة؛ الفكريَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والنَّفسيَّة..... لكلٍّ من الشَّرق والغرب، فإنَّنا لن ندخل هٰذه المعمعة لاتساع بحرها وسحيق غورها، عَلىٰ أنَّ لها دوراً جوهرياً وحاسماً في هٰذه المسألة، ولٰكنَّنا سنقف عند نقطة الآن المعاش، نقطة الضَّياع الذي نعيشه؛ ضياع الجهل والتَّخلُّف والتَّرهُّل... كلُّ مفاصلنا بحاجةٍ إلىٰ إعادة الشدِّ والتَّزييت فقد أكلها الصَّدأ وغطاها الغبار.

سنظلُّ نعاني من هٰذا الألم الصَّافع ما دمنا موبوئين بهٰذا الدَّاء العضال، ولن يكون الشِّفاء بَيْنَ يومٍ وليلةٍ لأنَّ أدواء العقول غير أدواء الأبدان، ولذلك ليس غريباً البتَّة أن تجد حَمَلَةَ أعَلىٰ الشَّهادات لا يفترقون في تصرفاتهم ومواقفهم التلقائية عن أيِّ عامي إن أمسك الصَّحيفة لا يعرف . لولا الصور . رأسها من ذيلها.

ولذلك، ومن هٰذا الباب وحده، نعذر الموظفين ـ عَلىٰ اختلاف مستوياتهم ـ الذين يستبدون بالمراجعين. نعذرهم تفهماً لا تسويغاً ولا تبريراً. وحَتَّىٰ تقتنع بذلك كن مكان أحدهم ساعة أو أكثر، رُبَّما يطير برج من رأسك، أو ترجع إِلىٰ البيت من غير أبراج.

عَلىٰ ألا يفرح الاستبداديون بهذا العذر فالذَّنب مشتركٌ، والتَّلوُّث عامٌّ، فإنَّ **فرعون** وإن فرعنه الناس غير معذور لأنه يعرف في قرارة نفسه أَنَّهُ تطاول عَلىٰ ما ليس يحقُّ له.

مهما يكن أمر التَّخلف وما ينتجه من أخلاق سلبيَّة فإنَّ المسؤول الأول والأخير هو السُّلطة السِّياسية الاستبدادية، لأنَّ المستبد لا يُعنى بالمجتمع ولا يعنى بأخلاقه بل المستبد معني تمام العناية بإفساد المجتمع وتدمير القيم والأخلاق لتبرير القمع والفساد وتبرير العجز عن الإصلاح؛ ستكون ذريعته الحاضرة دائماً: كيف يمكن إصلاح مجتمع بهذه الأخلاق؟!

وهنا عود عَلىٰ بداية المقال؛ مسرح الشوك. لم تكن عبارة (البيك) تعليقاً عَلىٰ سلوك أفراد مجتمعه إلا من التَّكريس والتَّبرير وتشريب المجتمع أنَّ هٰذا هو عقله الفاسد وأنَّ السُّلطة بريئة تمام البراءة من فساد المجتمع، وأنَّ السُّلطة غير قادرة عَلىٰ إصلاح مجتمع كله عنده عقد الزعامة. وهلمَّ جرًّا من هٰذه الأفكار التبريرية التي ترفع إصبع الاتهام عن السلطة وتلقي بسلة اللوم عَلىٰ المجتمع وتحمله مسؤوليَّة تخلُّفه وتدهوره وانهياره والفساد المنتشر فيه... وهٰذه لعبة ذكية ماكرة يفرزها إيقاع التَّخلُّف رُبَّما تديرها السُّلطة ورُبَّما يديرها المجتمع ذاته بحيله الدفاعية، ورُبَّما تأتي بتلقائيتها التَّاريخيَّة مفرزاً منطقيًّا للواقع ومعطياته وشروطه وظروفه.

بطبيعة لا نرفع أيَّ مسؤوليَّة عن الأفراد، ولٰكنَّ العقلية الاجتماعية نتاج جمعيٌّ تتحمَّل السُّلطة السِّياسية مسؤوليَّته بالدَّرجة الأولى؛ فالفقر عَلىٰ سبيل المثال لا يسوغ الوساخة، وكذلك التَّخلُّف فإِنَّهُ يسوِّغ أو يفسر مختلف أنواع الخلل ولٰكنَّهُ لا يمكن أن يمنح السُّلطة ولا الأفراد صك براءة من المسؤوليَّة عَلىٰ المستوى الفردي والجمعي.

الأَنا الأَعلى أَنا
مركزة العالم حول الذات

هٰذا الفصل مكتوب وأكثر فصول هٰذا الكتاب، ما عدا ما سيشار إلىٰ تاريخه، في أواخر الثَّمانيات وأوائل التسعينيات، ولم أعثر عَلىٰ تاريخ كتابته عَلىٰ غير عادتي ولٰكنَّهُ موجود بَيْنَ أوراقي في الشام، والشام بعيدة عني اليوم بعداً هائلاً. ولٰكنَّهُ نشر مرة ثانية بعنوان: الأنا الأعلى أنا؛ مركزة العالم حول الذَّات في جريدة الأسبوع الأدبي . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ٧٤٥ . السبت ١٠ ذي القعدة ١٤٢١هـ/ ٣/ ٢/٢٠٠١م

في حين يزدان تراثنا وتراث الشُّعوب كلِّها بالحِكم والأمثال التي تحضُّ عَلىٰ الاحتكام إلىٰ تجارب السَّابقين/ الآخرين، والاستفادة منها؛ بمتح العبر والعظات من معينها.

وفي حين لا تجد شعباً في العالم المعاصر لا يحضُّه عقله ويحفزه عَلىٰ الاتكاء عَلىٰ هٰذه الحكم والتَّجارب للمضي ارتقاءً في سلم التَّقدُّم والتَّطوُّر وتجاوز الواقع إلىٰ ما يفضله، نجدنا في الشَّرق الآن رافضين تقديم خبراتنا لسوانا، ضانين بنصائحنا عمَّن بعدنا، مصرِّين عَلىٰ أن يعانوا ما عانينا.

إنَّنا نغصُّ من غر لُقُم، نزدرد ريقنا فنشرق به إذا رأينا واحداً ينجح، أو يتفَوَّق، أو يلمع نجمه، أو يحاول الوصول إلىٰ الصُّفوف الأولى من دون أن يعاني ما مما عانيناه، من دون أن يتلظَّىٰ بنار العثار والعقبات، من دون أن تدمى يداه وقدماه بالأسلاك التي أكلت نُتَفاً من أجسامنا في أثناء تقطيعها لإزاحتها عن الدَّرب.

لماذا؟!

إنَّنا وبكلِّ لوعةٍ وحسرةٍ وأسفٍ . وإن كنَّا نفخر بذلك ونعتز به . مفعمون بعقد النَّقص والقصور ممتلؤون بالأمراض النَّفسيَّة التي يحسبها الراؤون مكامن قوَّة، وهي في الحق مآخذٌ ومَقَاتَلٌ تميت القلوب، وتوسع شروخ عقدنا الطافية عَلىٰ فكرنا وسلوكنا طفو بقع الزيت عَلىٰ سطح الماء الرَّاكد.

إن كان **فرعون** قد قال منذ نحو سبعة آلاف سنة: «أنا ربكم الأعَلىٰ» ولم يجرؤ غيره عَلىٰ قولها، عَلىٰ رغم بدئيتهم وإمكان أيِّ واحدٍ أن يدَّعي ذٰلك أو شبهه فإنَّ في كلِّ واحدٍ منَّا اليوم **فرعوناً** . عَلىٰ الرَّغْمِ من اتساع آفاق عقولنا ومداركنا ومعارفنا . ولٰكنَّنا فراعنة من نوع آخر؛ **ففرعون** لم يرد ولم يقبل أن يقتدي به أحدٌ أبداً، أما فراعنة اليوم فكلٌّ منهم يحسب نفسه مُخْتَصَراً للبشرية، أو أَنَّهُ اللوح المحفوظ الذي ينبغي ألا يحدثَ حدثٌ إلا كما انطبع في ذهنه، ولذلك يقول كلٌّ منهم: أنا مثلكم الأعَلىٰ، أنا قدرتكم العليا، وعَلىٰ الجميع أن يقتدي بي، أن يتمثَّلني، أن يعاني ما عانيت، أن يأسى مما آسيت، أن يتلظَّىٰ مما تلظَّيت... شئت أم أبيت، حَتَّىٰ تصير مثلي يجب أن تمر بكلِّ ما مررت به من عذابٍ ولوعةٍ وحرمان...

هٰذا النَّموذج **الفرعوني** الذي يجعل ذاته مثلاً أعَلىٰ عَلىٰ رغم أنوف العباد، ويجعل تجربته معبراً إلزاميًّا لكلِّ من سواه، تجده أنَّىٰ ولَّيت عينيك؛ تجده في الشَّاعر والقاص والمفكر والصحافي والأستاذ الجامعي، تجده في الأب، في رب العمل، في الحرفي، في كُلِّ شخوص مجتمعنا العربي المعاصر.

إنَّ أخطر ما ينجم عن سلوكتنا العدوانية هٰذه . وهي في أنظارنا تصرفات تربوية توجيهية هادفة . هو أنَّنا نخنق من نزعم أنَّنا نحبُّهم ونصبوا إلىٰ تهذيب نفوسهم، وصقل مواهبهم، وإرشادهم، وتوجيههم، وإصلاحهم... بروائح مزابل تجاربنا المخفقة الفاسدة؛ فنحبط من كان متحمِّساً منهم، ونقتل من كان حساساً ضيق الصَّدر، ونخلق ممن استطاع الصمود شخصيات عدوانيَّة شرسة مقنَّعة بابتسامة الود والوداعة. لأننا نتخبط في سلوكاتنا وأفعالنا تخبط العميان في الجلبة والغوغاء؛ لا ندري أين نضع العصا التي نتحسس بها مواضع الخطىٰ، بل

لا نعرف كيف نتعامل مع العصا، وإن اتَّفق لنا ذٰلك لم نحسن وضع القدم في المكان الصَّحيح فلا تفرق أقدامنا بَيْنَ حجر ورأس وصدر وحصى... كلها سواسية كأسنان المشط أليست المساواة جوهر العدل؟ هٰذه هي المساواة كما نفهمها؛ نساوي بَيْنَ رأس البصل ورأس الإنسان، بَيْنَ صدر الفروج المنتوف وصدر المبدع الأنف...

والمشكلة الحقيقية والعظمى أننا ننطلق في فعالنا هٰذه من قناعات وعقائد مبدئيَّة غير قابلة للنقاش أو التَّعديل أو التَّحوير أو التَّدوير... ومحور هٰذه المبادئ . للأسف . هو أنَّ مقاصدنا نبيلة شريفة نظيفة، فنحن لا نفعل ما نفعل إلا لمصلحة الأخلاف وحسن تربيتهم، لحرصنا عليهم نتشدد في تعاملنا معهم.

سنساق وراء هٰذا الاعتقاد فلا نشكُّ في أنَّ الأب لا يريد الخير لابنه، ويتعذَّر عَلىٰ عقلنا تقبل أنَّ الأستاذ يضنُّ بالنُّصح عَلىٰ تلميذه، وتأبىٰ أعيننا تصديق أن من يُعبِّد الدَّرب يزرعه ألغاماً... إنَّنا نريد الخير فعلاً لمن يستلم الراية منا ولٰكنَّ أفتنا كبيرة لأننا إن أحسنا النوايا لم نحسن السبل، فكلُّ ما نفعله هو أنَّنا نقطع الأسلاك الشَّائكة الماثلة أمامنا لنلقي بها خلفنا أكواماً أكثر (شربكة) وتعقيداً، تزيح التلال من أمامنا لنخلف وراءنا الحفر، وكأنَّنا نناضل ونكافح لتصفق لنا النَّاس فقط. وحَتَّىٰ يعظم فعلنا السَّخيف أو المتواضع في أعين الناس يجب أن يكون إنجازنا قياسيًّا لا ينبغي لمن بعدنا تحطيمه.

فماذا نفعل؟

ليس أمامنا إلا أن نزيد العثار والعقبات أمام هؤلاء؛ نجعل الحفرة الصَّغيرة التي اجتزناها هاوية، والتلة الصغيرة جبلاً، والأسلاك الشائكة حقول ألغاماً...

هٰذه وظيفة العقل الباطن، اللاوعي، اللاشعور، فنحن في ساحتنا الشُّعوريَّة لا نرىٰ هٰذه الأشياء، ولا تخطر في بالنا، والسَّبب الرئيس الذي يحدو بالعقل الباطن إلىٰ ذٰلك هو عقد النقص والقصور، ورُبَّما الكبت والقمع، ولٰكنَّ الخواء والخور الفكري والمعرفي هو الأساس.

نعم ومن عمق الأسىٰ أقولها:

إنَّ سطحيَّة تجاربنا وضحالتها هي التي تقف وراء سخفنا في التَّعامل مع الأخلاف، ماذا نعرف في إطار اختصاصاتنا لا في غيرها؟ نتفٌ وشذرات نظلُّ ندور في أفلاكها وكأنَّهَا العلم والعالم كلهما، نضحك بها عَلىٰ طلابنا المساكين فنبهرهم في البداية، ولٰكن عندما نظلُّ نكرِّر عليهم هٰذه الأسطر القليلة يحتقروننا ويحتقرون أنفسهم أَنَّهُم انخدعوا بنا.

هٰذه هي الحقيقة من دون أقنعة فهل نقبل بها ونعيد النَّظر إلىٰ أنفسنا في تقويمٍ جديدٍ؟!

كم نبدو أقزاماً في حضرة العظماء!! ولٰكنَّ كبرياءنا الزائف يأبىٰ تصديق ذٰلك ويعجز عن فهم المعادلة إلا مقلوبة فنرىٰ العظماء أقزاماً في حضرتنا، من شدَّة قصورنا لا نستطيع فهمهم فنحسبهم أعييياء بهم حَصَر، وعَلىٰ عمق أبحرهم وضحالة أوشالنا ننسب إليهم الخواء وإلىٰ أنفسنا الامتلاء. وعَلىٰ رغم ذٰلك كله نمركز العالم حول أنفسنا، ونجعل من ذواتنا مقاييس العالمين ومحكَّاتها.

كفانا تخفيًّا وراء ذواتنا الهشَّة المهترئة، كفانا إيهاماً لأنفسنا بأنَّهَا عظيمةٌ وهي خاوية حَطِيمة؛ فما أكثر ما رُدِّدَ عَلىٰ مسامعنا قولهم «وكثيرٌ من تلميذ فاق أُستاذه» ولٰكنَّنا نبذل الآن الغالي والرَّخيص لنثبت عكس ذٰلك، لنؤكِّد أنَّ الأساتذة هم القمة ومن المستحيل أن يرقىٰ تلامذتهم إلىٰ بعض مستواهم،

ولذلك ما أكثر ما يشكو التلاميذ من بخل بعض أساتذتهم بالمعارف المهمَّة والضَّروريَّة؛ في الطب والهندسة والعلوم الأساسية والفكر والآداب... ولا يفترق هٰذا الفريق الضَّنين عن الفريق الخاوي في شيء فكلاهما مفعمٌ بعقد النَّقص والقصور والخوف من تفوق التلاميذ عليهم.

نعم، إنَّنا نخاف من تفوّق تلاميذنا علينا، نخشىٰ أن يقال إنَّ التلميذ أفهم من أستاذه وأفقه منه...

تُرىٰ لو كنا نثق بإمكاناتنا وأنفسنا هل سيجد هٰذا الخوف إلىٰ قلوبنا سبيلاً؟

قطعاً لا، نحن نثق في إمكاناتنا ولا نثق في أنفسنا ولا نثق في معارفنا، وقفنا عند ما حصَّلناه قديماً وتركنا القطار يسير سريعاً من دون أن نفكِّر في اللحاق به، وظنَّنا أنَّ العلم قد وقف معنا حيث نحن، فلا نحن نقبل الجديد ولا نقتنع به، ونصر عَلىٰ أنَّ تجاربنا المهترئة هي الأساس والمنتهى، هي القدوة والنبراس، ولهذا أيضاً نجدنا مضطرين لإلقاء العثار والعراقيل أمام الأخلاف، نلقيها من حيث لا ندري ولا ندري.

فأين ذاك الذي سيرش أوجهنا بالماء ليخرجنا من إغفاءتنا واسترسالنا وراء أوهامنا؟!

ومَتَىٰ نسفع الخد سفعة النادم عَلىٰ ما فرَّط في نفسه وأولاده؟

اقتفينا آثار غيرنا من الأمم في كثير من المواقف والأفكار والعادات والتقاليد... فلنسر وراءهم في الأكثر أهمِّية، الذي ينتشلنا من مستنقع الهم آلا وهو احترام الآخر أولاً والاعتراف بحقه في إبداء الرأي واتخاذ الموقف والمبادرة التي يراها، ولنكن عَلىٰ ثقةٍ في أَنَّهُ لن يصحَّ إلا الصحيح، ولن يدوم إلا الأصلح.

والمسألة الثَّانية التي نرجو أن نقتفي خطىٰ غيرنا من الأمم فيها هي احترام المواهب والعبقريات ورعايتها؛ تفخر الأمم والشعوب بأن فيها عبقرية نبغت وهي صغيرة:

فلماذا نصرُّ عَلىٰ أنَّ صغير السِّن غير قادر عَلىٰ الإبداع؟!

ولماذا نصر عَلىٰ إحباط هٰذه النَّماذج وتحطيمها؟!

لنعرها بعض الرِّعاية وقليلَ الاهتمام ولننظر ماذا تفعل وماذا تنجز وعندها نحكم. ويفخر العظماء باكتشاف المواهب والبحث عنها لمساعدتها فلماذا نصر عَلىٰ التنكر لذوي المواهب وعَلىٰ نعتهم بالتَّطفل عَلىٰ (المهنة) وقصد الارتزاق من دون الإبداع؟!

وأخيراً، وقبل أن أضع قلمي وأبصم عَلىٰ أقوالي لا بُدَّ من لفت الانتباه إلىٰ بعض التَّحفُّظات التي لا مناص منها وهي أن حكمنا ليس حكماً شاملاً ينطبق عَلىٰ الجميع فهٰذه مغالاة وتطرُّف لا مبرر له أبداً فثمة أناسٌ: أدباء وشعراء ومفكرون... أنزه من النزاهة لا تجد لانتقاصهم مدخلاً، والأمثلة ليست قليلة، لٰكنَّ الذين لا تجد لاحترامهم مدخلاً كثيرون جدًّا وبأيديهم تناط مرابط الثقافة ومنابر الإعلام في عالمنا العربي.

أمَّا التَّحفظ الثاني فهو ما انتهينا إليه أخيراً من الاتهام بالارتزاق والتَّطفل، والحقُّ أنَّنا كما رفضنا الشُّمول قبل قليل فإنَّنا نرفضه هنا أيضاً فلا شكَّ أيضاً في وجود من يتطفَّل ومن يساعده عَلىٰ التَّطفل وهؤلاء طائفة (كرغوة) الصابون تطفو عَلىٰ سطح الماء وتعلو وتعلو ولكن هبة نسيمٍ رهيفٍ خفيف لا تبقي منهم على أثر. ولولا أَنَّهُم بأيديهم مرابط الإعلام والثقافة ويلمعون بعضهم ويفخمون بعضهم ويشهرون بعضهم لما وجدت ن يشتري أيًّا منهم بخمس قروش.

والتَّحفُّظ الأخير ينبثق من الثَّاني ويرتبط به وهو ما قد يخاله بعضهم من أنَّي أدعو إلىٰ ترك الحبل عَلىٰ الغارب من غير ضابط ولا ناظم لتفلت الأمور ويطلع علينا كلٌ من هبَّ ودبَّ بتفتقات ذهنه، قطعاً لا أريد ذٰلك ولا أقبله فما زال في الوجه ماءٌ وما زال في العقل فضلة.

أخلاق التخلف

الأَنانية والشطح

هٰذا الفصل كتب على قسمين؛ القسم الأول في أواخر عام ٢٠١٤م، والقسم الثاني بعد أشهر في أوائل عام ٢٠١٥م. القسم الثاني وقد أشرت إلى بدايته نشر على صفحة الفيس بوك في وقت كتابته، والقسم الثاني هو الأول في ترتيباً وقد نشر أيضاً على مجتزءات صغيرة في صفحة الفيس بوك في تاريخه ووقته.

قبل ربع قرن من الآن، ورُبَّما ربع قرن بتمامه، كتبت في مركزة العالم حول الذَّات هي ضرب من الأنانية من جانب، وضربٌ من العقد النَّفسيَّة من جانب آخر. ولٰكنِّي في ذٰلك المقال والحين كان تركيزي عَلىٰ أخلاق المبدعين أو المنسوبين إلىٰ الإبداع ظلماً وزوراً ممن تسنَّموا مسؤوليات إدارة منابر الثَّقافة والإعلام الفكر والرَّقابة وهلمَّ جرًّا. ومنهم الموهوبون فعلاً والمبدعون فعلاً، ومنهم الأدعياء المتسلقون الذين أنتجتهم الأنظمة السياسية الحاكمة والموازية.

الأنظمة الحاكمة يعرفها الجميع، ولٰكن هل توجد أنظمة سياسيَّة موازية في العالم العربي؟

هٰذا ما لا يدركه أحدٌ ولا يعرفه أحدٌ إلا من رحم ربي.

اليسار العربي هو النِّظام السِّياسي العربي الموازي الحاكم، عَلىٰ الرَّغْمِ من أنَّ الأنظمة العربيَّة كلَّها في ظاهر الأمر تلاحق اليساريين وتحاربهم وتعتقلهم وتغصُّ بهم سجون الأنظمة العربية كلها تقريباً. وهٰذه خدعةٌ تمارسها الأنظمة العربيَّة وضحايا شباب يساريون صادقون في يساريتهم لا أظنُّ أنَّهُم شركاء للمخابرات في لعبتهم مع قيادات هٰذه التَّنظيمات أو الحركات اليساريَّة. وإلا كيف يمكننا تفسير أنَّ الأنظمة العربيَّة كلَّها تحارب اليساريين وتطاردهم وتحظر تنظيماتهم وفي الوقت ذاته فإنَّ الذين يسيطرون عَلىٰ وسائل النَّشر والإعلام والثقافة الحكومية كلها يساريون إن لم يكونوا في الواجهة فهم الدينمو أو الفاعل الحقيقي في المؤسَّسات؟

من غير المنطقي تَقَبُّل أنَّ الأنظمة الحاكمة لا تدرك ماذا تفعل. حَتَّىٰ في السعوديَّة بلاد الحرمين حامية الإسلام والمسلمين فإنَّ الفاعل الحقيقي في مؤسَّسات الإعلام السُّعودي منذ عشرات السنين هم من اليساريين، بل منذ أكثر من ستين سنة من الآن عَلىٰ الأقل.

كثيرون سينكرون ذٰلك حَتَّىٰ من خصوم اليساريين وأعداءهم.

هم أحرار فيما يقتنعون به وبه يعتقدون، ولا أطيل في نقاش ذٰلك. لأنَّ الذي يعنيني الآن هو الوجه المقابل لهٰذه الفئة أو الشريحة الاجتماعيَّة بوصفها تمارس أخلاقيات المجتمع المتخلف أو الأمَّة المتخلفة.

الوجه المقابل هو جمهرة النَّاس وعمومها في المجتمع والأمَّة. تحدثت عن الأنا المنتفخة عند المبدع والآن أعرض للأنا المنتفخة في المجتمع أي للأنا والأنانيَّة في وجه من تجلياتها لدى المجتمع بالمجمل أو بوصفها عقليَّة اجتماعيَّة. والاستثناء بالضَّرورة دائماً موجود، حَتَّىٰ لا يتنطعن هواة الاعتراض بالقول: هٰذا وذاك.

يعتقد الكثيرون أنَّ الأنانية هي فقط ما يشبه الغرور أو حب الذات وتفضيلها عَلىٰ الآخرين بمن فيهم المقربين وهٰذا صحيحٌ مبدئيًّا لأَنَّهُ أبرز صور الأنانية وأوضح تجلياتها، ولٰكنَّ الأنانية تتمظهر بمظاهر كثيرة يصعب عَلىٰ الكثيرين تخمين أو توقع أَنَّهَا يمكن أن تكون من الأنانيَّة.

هٰذا المظهر من مظاهر الأنانية لدى المجتمع الذي سميناه الأنا المنتفخة أو انتفاخ الأنا في مقابل انتفاخ أنا المبدع سنسميه الشطح بل سنركز عَلىٰ الشطح منه. والشطح معروف، ولا يوجد أسهل من الشَّطح.

الحشيش من الوسائل المساعدة للشَّطح، وقد عَرَفَتْهُ بعض الشَّرائح الاجتماعيَّة في تاريخنا العربي يوماً ما، وعرفته البشرية جمعاء وليست مجتمعاتنا

العربية وحسب. ولٰكنَّ كثيراً من البشر خيالهم مثل خيال الحشاشين من دون حشيش، يستطيعون الشَّطح بسهولة، بل لا يستطيعون إلا الشَّطح...

أعني بذلك أنَّ هٰذا الشَّطح موجودٌ في المجتمعات كلِّها من دون استثناء؛ موجود وجوداً مرتهنا بالعقليَّة الاجتماعيَّة ومَدَىٰ تحضرها وتخلفها. موجود في المجتمعات المتحضِّرة سلوكاً فرديًّا قليل الحضور، قليل الظهور، قليل الفاعلية، بينما يظهر هٰذا الانتفاخ للأنا، أي ما سميناه الشطح، بَيْنَ أفراد المجتمع المتخلف بوصفه ظاهرة اجتماعيَّة، أي ما يشبه السلوك العام، لأَنَّهُ أحد تعبيرات العقلية الاجتماعية عن ذاتها، أحد تجليَّات الأخلاق الاجتماعيَّة؛ أخلاق المجتمع المتخلِّف، وقل أخلاق التَّخلِّف. وسنبين سبب ذٰلكَ بعد قليل.

الشَّطح أنواعٌ ومستويات وفنون:

مثلاً (القطش واللحش) نوعٌ من الشَّطح (والطَّحش).

ما أكثر الذين (يقطشون ويلحشون) من دون تحقُّق أو تأكُّد أو حَتَّى محاولة سؤالٍ عن أصل الخبر أو الحدث... مهما كان ومهما كانت نتائجه... قد يخرب الدُّنيا نقل هٰذا الخبر لما فيه من (تخبيص) أو إساءة أو افتراء أو فبركة أو غباء...

لا يبالي هؤلاء بل لا يدركون حقيقة ما يفعلون. رُبَّما يدركون فقط أَنَّهُم يريدون الظُّهور، الاستعراض، تسجيل الحضور... أمَّا تبعات نشر الخبر، (القطش واللحش)، القص واللصق... فهي آخر همهم إذا كان من الممكن أن تكون جزءاً من همهم أو اهتمامهم.

الأسباب لا السبب ليست واحدة ولا تعلل بكلمة. ولٰكن هناك مؤشِّرات أساسيَّة وكبيرةٌ يمكن أن تفسر لنا بعض الظَّواهر الاجتماعيَّة بمختلف حواملها.

لا أريد أن أعود إلىٰ التفسيرات المعمقة التي قدمتها في عدد من الأبحاث منذ سنين كثيرة، وإنَّمَا أريد تسليط الضَّوء عَلىٰ ظاهرةٍ أساسيَّةٍ تحكم مجتمعنا العربي والإسلامي اليوم. إنَّهَا من الحقائق التي ننكرها ونتنكر لها ونرفض الاعتراف بها ألا وهي أنَّنا شعب تأكله الأنانية وأنانيته تأكل القيم والأخلاق... هٰذه طبيعة المجتمع المتخلف وهٰذه أخلاق التخلف، وأقول ذٰلك لتأكيد أنَّ المشكلة ليست في العرق وإنما هي في مستوى الوعي الحضاري الذي تحتازه الأمة.

هٰذه الأنانينة نتيجة وسبب. نتيجة لجملة أسباب تحتاج تفصيلاً. وهي في الوقت ذاته سبب للخراب والدَّمار الذي نعيشه بل الأكثر صواباً هي عامل إعادة إنتاج التخلف وتكريس الدوران في حلقة مفرغة عاجزة عن إنتاج ما يجيز أو يسمح أو يفرض تجاوز هٰذا الواقع المتردي المتخلف... وأسهب ما شئت فيما قد ينجم عن ذٰلك من تبعات سياسية واقتصادية وقيمية...

ومن هٰذه التبعات عَلىٰ سبيل المثال لا الحصر، بما هٰذه الظاهرة سلوكٌ نتيجةً وسبباً، نحن الآن شعب لا يعترف بحقِّ الآخرين، ولا يترك للآخرين فرصة الحصول عَلىٰ حقوقهم... شعب نَهَّاز فرص، إذا امتلك شيئا مصادفة ليس من حقِّه امتلاكه فإنَّهُ يتمسَّك به ويمنعه عن النَّاس، ويمنع النَّاس عنه، وكأَنَّهُ حقٌّ طبيعيٌّ له. لا نميز بَيْنَ حقوقنا وحقول حقوق الآخرين؛ كل ما تطاله يدنا فهو حقُّنا مهما كانت طريقة وصولنا إليه وامتلاكه.

هٰذا هو الشَّعب العربيُّ والمسلم اليوم من طنجة إلىٰ جاكرتا. كلُّ الممارسات والسلوكات والتَّصريحات والأفعال تؤكِّد هٰذه الحقيقة بما يقطع دابر الشَّك. وأرجو أن لا يقولن لي أحد: أنا لا أفعل ذٰلك... أكرِّر: الاستثناء

موجود بالضَّرورة، والصَّواب في الأصل والمنطق هو هٰذا الاستثناء. الاستثناء الذي يجب أن يكون هو القاعدة.

قارنوا بَيْنَنا وبَيْنَ الشُّعوب الأُخرىٰ في الأزمات، في الأحوال العاديَّة، في الفرص... في كلِّ شيء...

في ظلِّ هٰذه الأجواء من الطَّبيعي أن تنقلب كلُّ القيم رأساً عَلىٰ عقب؛ نمدح الخائن ونطعن الأمين، نصدق الكاذب ونكذِّب الصَّادق... ويغدو صندوق عجائب العرب والمسلمين نبعاً لا ينضب.

هٰذه أخلاق التخلف بالمجمل بغض النظر عن الظروف الاستثنائية، والمراحل الانتقالية وما تثمره من أخلاق استثنائية الأمر الذي تحدثت فيه في كتابي انهيار دعاوى الحداثة الذي صدر عام ١٩٩٤م. أعني ذبك أننا لا ننكر مَدَىٰ التناقضات التي تفرزها المراحل الانتقالية والظروف الاستثنائية، ولٰكنَّ المجتمع العربي في هٰذه الظروف الاستثنائية كان عَلىٰ عكس المنطق والواجب، عَلىٰ عكس الغريزة، عَلىٰ عكس ما كانت وتكون عليه المجتمعات الأُخرىٰ في هٰذه الظروف الاستثنائية.

السنوات الأخيرة شهدت الربيع العربي الذي جاء لينقذ المجتمع العربي ولٰكنَّ المجتمع العربي لم يكن عَلىٰ قدر هٰذا الربيع، فأعطى أبشع الصور بأخلاقه وممارساته عَلىٰ نحو عام وأكرر لا تحدثوني عن الاستثناءات،

الربيع العربي رفع الغطاء عن المكبوت من أخلاق التخلف وفجَّر الطاقات حَتَّىٰ شاهدنا العجاب العجاب في سوريا ومصر وتونس واليمن والعراق ولبنان... ولٰكنَّ المسألة عَلىٰ أي حال كما أشرت أكبر من الربيع وأسبق عليه بكثير، هي سمة المجتمع المتخلف كما أشرت غير مرَّة.

ولا بأس من بعض الأمثلة والشواهد الحية التي لا تخلومن شيء من الكوميديا، وهي منشور نشرته عَلىٰ أشهر عَلىٰ صفحتي في الفيس بوك كما كان شأن أكثر ما سبق.

أحيانا تبرز الأنانية بمظاهر أو سلوكات لا يمكن تصديقها، لا تستطيع أن تجد لها تفسيراً كافياً أو مقنعاً، ولا توصيفاً مناسباً أو تصنيفاً بَيْنَ القيم، هل هي أنانية حاقدة، أنانيَّة حاسدة، أنانيَّة مع الغيرة، أنانيَّة عمياء، أنانيَّة حمقاء... أم كلها معاً أم بعضها معاً؟!

أضرب مثالاً، حدث معي قبل خمس سنوات، مرَّ مثله مع أيٍّ واحد منكم أكثر من مرَّة بكلِّ تأكيدٍ وأحكيه كما حدث تماماً حَتَّىٰ لا أغير في الواقع شيئاً:

كان يحدثني أحد أقاربي عن سيارة اشتراها، فتح الباب ودخلنا إليها، رأيت علبة نظارات فوق المرآة الدَّاخلية، لفتت انتباهي لأنَّني أبحث عن مثلها لسيارتي، فقلت:

. هذه ليست من السَّيارة بالأصل، أليس كَذٰلكَ؟

قال: نعم، أنا اشتريتها وركبتها.

ولأنني أبحث عن مثلها لحفظ النظارة تابعت في سؤاله:

. من أين اشتريتها؟

قال: والله، من عند واحدٍ.

. سر يعني؟

. يعني... هيك تقريباً... ما كان عنده غيرها...

أحسست كأنِّي أسأله عن نبتة الخلود التي لا يمكن أن يأكلها أكثر من شخصٍ واحدٍ ويريد أن يستأثر بها، في حين أنَّ الملك جلجامش أحضر نبة الخلد من آخر الدنيا برحلة كاد يموت فيها مرات، وعندما وجدها لم يؤثر نفسه بها وهو الملك، بل آثر أن يأخذها ويزرعها في وطنه ليطعم شعبه كله منها.

في البدء كذَّبت أذني وإحساسي وأقنعت نفسي بأنَّهُ يمزح. ولٰكنَّ النبرة والملامح والمتابعة أكَّدت أنَّهُ يريد أن يخفي عني محل بيع علبة النظارات... علبة نظارات وليس سرَّ الخلود ولا سر السعادة ولا سر النجاح ولا سر التفوق ولا أي سر سخيف... علبة نظارات.

المسألة لا تبدو خطيرة، ولٰكنَّها خطيرة.

تخيل أن أنَّك شاهدت (صديقاً . قريباً) يحمل بعض البرتقال، وأعجبك منظره، وسألته من أين اشتراه ورفض أن يدلك... وليس له عذر طبعاً. كيف ستجد الموقف؟ وكثيراً ما يحدث هٰذا ذاته بالتحديد في البرتقال أو غيره.

هٰذه العقليَّة متوافرة بكميات تجاريَّة في مستودعات مجتمعنا. هٰذه العقليَّة عندما توجد في مجتمع بمستوى معين فإنَّهَا تعني أن المجتمع مريض نفسيًّا، المجتمع هو المريض نفسيًّا وبحاجة إلىٰ علاج شامل.

ستحدثوني عن نماذج مقابلة. صحيح. توجد نماذج مقابلة. ولٰكن عندما يكون السلوك ظاهرة اجتماعيَّة فإنَّهُ مؤشِّر عَلىٰ بنية المجتمع. البخل مثلاً موجود في كلِّ مجتمع وكلِّ بيئة في كل العالم، ولٰكنَّهُ عندما يكون ظاهرةً اجتماعيَّةً في بيئة أو مجتمع ما فهذا يعني أنَّ المجتمع موبوء بهذا المرض.

هل أحصينا مدى ما في مجتمعنا من أمراض؟

دعوني أقل لكم: لقد كان مجتمعنا، بل أمتنا وما زالت، مغطى بشبكة عنكبوت لا بأوراق التوت، وما إن انفتحت طاقة الهواء حَتَّىٰ تفجَّرت الأمراض والأوبئة. هٰذا الكلام الذي أكتبه الآن في أول العشر الأخير من أيار/مايو ٢٠١٤ كتبت فيه الكثير من المقالات التي نشرت منذ أكثر من ربع قرن. علَّق بعضُ النُّقاد حينها بأن هٰذه الرُّؤية تشاؤميَّة، سوداويَّة... عدلت عنها إلىٰ الكشف عن الآفاق الإيجابيَّة وفتح الثَّغرات التي يمكن يطلُّ منها النور. وساعد عَلىٰ ذٰلك ظاهر الاستقرار الذي شهده العالم العربي. ولٰكن اليوم مع الربيع العربي بدت العورات واضحة ولم يعد من الممكن عَلىٰ عاقل أن ينكر أن العورات كلها مكشوفة... العورات كلُّها مكشوفة... إنَّهَا الملك الذي ضحك عليه الخياط وأوهمه بأنه يُلْبِسه ثوباً فيما لا ثوب في الحقيقة هو هواء... ومشى الملك عارياً بَيْنَ رعية منافقةٍ تصفق لجمال ثوبه...

لم يكن هٰذا السلوك غير موجود، وشاهدي قبل الربيع العربي، ولٰكنَّ الربيع العربي أدَّى إلىٰ انهيار السُّلطة بل مختلف أنواع السلطة فظهرت الضمائر عَلىٰ حقيقتها.

المبدعون
في محارق المخفقين

هٰذا الفصل مكتوب وأكثر فصول هٰذا الكتاب، ما عدا ما سيشار إلىٰ تاريخه، في أواخر الثَّمانيات وأوائل التسعينيات، ولم أعثر عَلىٰ تاريخ كتابته عَلىٰ غير عادتي ولٰكنَّهُ موجود بَيْنَ أوراقي في الشام، والشام بعيدة عني اليوم بعداً هائلاً. وقد تأخر نشره لما يتحدث عنه هٰذا الفصل وغيره، نشر بعنوان: جريدة الأسبوع الأدبي . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد٧٥٣ . السبت ١٤محرم ١٤٢٢هـ الموافق لـ ٢٠٠١/٤/٧م.

لعَلَّهُ **بودلير** الذي قال: «كلمة مدحٍ تقال لي خيرٌ من ألف كتاب يؤلف عني بعد موتي» وهو صادق في التعبير عما تحيش به نفسه، وعمَّا هو جزءٌ صميميٌّ من طبائع المبدعين عَلىٰ اختلاف ميادين إبداعهم.

نعم، هناك من ينغمس . أو حَتَّىٰ لا ينغمس . في تجربته الإبداعيَّة من دون أيِّ تفكيرٍ بمدحٍ أو شكر أو ثناء... والمبدع، عَلىٰ نحوٍ عام، لا يبدع لكي يقال له أنت رائع أو بارع أو غير ذٰلك.

ولٰكن يجب أن نكون صريحين مع أنفسنا ومع الآخرين: إنَّ باعثاً مهمًّا جدًّا من بواعث الإبداع هو حبُّ الشُّهرة والظُّهور، الظُّهور بالامتياز عمن سواه امتيازاً حَفَّ بالمحاسن وحسب، وإلا لماذا يطلب الإنسان الشهرة أليشزره الناس ويعبسون في وجهه؟!

لا أظنّ ذٰلك، ولذلك فإنَّ شهرة الذي أنمىٰ أظافره أمتاراً، أو الذي أطال لحيته أشباراً وأفتاراً لا تقاس أبداً بشهرة أيِّ مبدع في أيِّ ضربٍ من ضروب الفن، ولو أمكنت المساواة بَيْنَ الشهرتين أو المقارنة بَيْنَهما لوجدنا من يطبع صورة وجهه عَلىٰ مقدِّمة حذائه أو عَلىٰ مكان آخر ملفت للانتباه نوعاً من الشُّهرة.

قد يوجد من يعترض بأنَّ ثَمَّةَ رسالة يؤدِّيها المبدع وأمانة يوصلها وهاتان مسؤولية جسيمة تمثل في الضمير لا تبرحه؛ تبعثره، تلملمه، تمزقه، تشتته...فيقلق المبدع ويأرق ويسهد... لهٰذا الكلام الطَّنان الذي طلع علينا به دعاة الإلزام والالتزام في الفن والأدب فيه من الصَّواب كثير ولٰكنَّهُ الخطوة اللاحقة من غير لزوم منطقي، والتعصب له وتحييد ما سواه يخرج الفن من ميدان الفن ليلقي به في حضن الإرشاد السياسي أو غيره...

لن نناقش هٰذا هنا لأنَّهُ ليس من مقاصدنا الآن، فالآن نريد ما يقرع الانتباه كلَّ لحظةٍ وكلَّ لمحةٍ فيما يخص المبدعين في عموم وطننا العربي، ولا بأس من إدراج العالم الذي كان يَعدَّ «ثالثاً» ولا ندري إلىٰ أي عددٍ وصل الآن.

في الغرب ينظر إلىٰ المبدع بمزيد الاحترام والهيبة والتقدير، وللمبدع مكانته وكلمته وأهميته. ويحقُّ لهم أن ينظروا إلىٰ مبدعيهم من خلال هٰذه الهالة التي تشع بما ائتلق من ضروب التبجيل والتقدير لأنَّهُم يعرفون واجبهم تجاه هٰذه الفئة منهم أولاً. ولأنَّهُم راقون بعقلياتهم الحضاريَّة، لا تنقصهم الكياسة واللباقة أبداً في التَّعامل مع المتميِّزين، مع المتفوقين. أمَّا نحن فيحقُّ لنا أن نزدري عباقرنا، أن نزرع شوك الصَّبار في سقوف حلوقهم، في أحداق أعينهم، أن نحول بَيْنَهم وبَيْنَ ما يسرُّ قلوبهم حَتَّىٰ ولو كان خدمة المجتمع والأمَّة، أن لا نترك عثرة في الدنيا والآخرة إلا ونلقيها أمامهم...

نعم، هٰذا من أهمِّ ما يميزنا الآن ونختص به، وهو حقٌّ لنا ولا يحق لأحدٍ الآن أن ينازعنا هٰذا الحق لأنَّنا نعيش غياهب أوروبا الوسطىٰ التي حاكمت **غاليليو** وأحرقت **برنو**... وهٰذا الحق طبيعي لا مكتسب.

لا أقول ذلك سخرية أو هزءاً، إنَّه الواقع الذي يجب علينا أن نفهمه . قبل أيِّ شي .كما هو لا كما يحلو أو يطيب لنا، ولا كما يجب أن يكون...

هٰذه طبيعة المجتمع المتخلف، وهٰذه عقليته وآليَّته التَّفكيريَّه، ونحن متخلِّفون، غارقون في تخلُّفنا حَتَّىٰ ما فوق الأذنين، والتَّعالي عَلىٰ مثخنات جراح التَّخلف بعدم الاعتراف بها لا يفيدنا إلا مزيداً من الخبط في مستنقعات قذرة، فليس التَّخلف جملة من الشُّروط الثابتة أو التَّعدادات المحددة يخرجُ منها ما ندَّ في واحدٍ عنها؛ أيعقل أن يكون حامل شهادة جامعيَّة من الإجازة حَتَّىٰ الدكتوراه متخلِّفاً؟!

ليس من وظيفة الشهادة أن تبرئ الموبوء بالتَّخلف أو تكشف عن بصيرته ـ وإن كان المفترض عكس ذٰلك تماماً ـ فما أكثر من حمل هٰذه الشَّهادات ـ ويكفيك منهم حملة الدكتوراه ـ وظلت عقليَّاتهم ونفسيَّاتهم لبنات متينة تسد ثغرات التَّخلف في المجتمع فتقوي بناءه وتحول دون اختراقه. صورة مضحكة وتبدو مفارقة منطقية أو فكرية ولٰكنَّهَا قائمة، وشواهدها جدُّ كثيرة.

وتزداد الصورة كاريكاتيرية صادمة لا محكة عندما تصطدم مع واحدٍ من هؤلاء مُنح شرف الشهادة العالية من دولة متحضرة راقية عاش فيها كما يفترض ما لا يقل عن أربع سنوات.. وعاد كأسوأ ما يكون من عقد النقص والتخلف والقصور...

في ظلِّ ذٰلك كلِّه، في حلكة الظلم هٰذه، يخرج المبدع . في أي ميدان كان . ليفعل ما يفعله الخارج من كهف **أفلاطون**، لينير درباً، ليشعل شمعه، ليحرك

ساكناً عَلىٰ أقلِّ تقدير؛ يتعثر في الظلمة فينهض، ويتعثر ثانية فيقف فيسقط في حفرة، يخرج فيقع في فخ ثُمَّ مصيدة، وتعترضه الخفافيش فيذب عن وجهه وجسمه وفجأة تعجز يداه عن الحركة، يحسبها تجمدت أو علقت في شباك أو عدت للخفافيش ولٰكنَّ المفاجأة المذهلة تكمن في أنَّ الذين نهض لنير دربهم هم الذين يمسكون يديه ويكبلون رجليه... هم الذين كانوا يُعثرونه ما بَيْنَ سقطة عَلىٰ الأرض أو فيها... لحظة متأملاً متفكراً.

قد يثور، قد يدور، قد يأسف، قد يندم، قد يحبط، قد يستسلم... ما أقل من ثار وما أكثر من دار حول نفسه محبطاً مستسلماً أسفاً عَلىٰ ما أراد من خير ونادماً.

إنَّ المأساة الحقيقية التي يعيشها مبدعونا هي أَنَّهُم واقفون /قاعدون/ نائمون بَيْنَ محرقتين لا تبقيان ولا تذران؛ محرقة الروتين (الرتابة الإدارية) إن كان لما يخصُّ إبداعهم علاقة بالدَّولة وهٰذه مشكلة وإن لم يكن تجاوزها وارداً فإنَّهُ أخف بعض الشَّيء من محرقة المخفقين والجهلة الذين يخلقون الروتين ويخلقون العقبات ويصنعون العثار ويحوكون الفخاخ والمصائد... ولحرقةٍ من ذٰلك أهدىٰ **طه حسين** أحد كتبه «إلىٰ الذين لا يعملون، ويسوؤهم أن يعمل الآخرين».

لا يختلف مبدعونا عن مبدعي أمم الأرض كلها أبداً؛ فيهم من يريد الخير من منظور المجتمع وفيهم من لا يتَّفق مع البنى الفكريَّة الاجتماعيَّة السَّائدة ويحاول اختراقها، وفيهم الخلوق المؤدب، وفيهم غير ذٰلك. فالمبدع إنسان له ميله وهواه شأنه شأن أيِّ إنسان، ولٰكنَّ مبدعينا ينقصون عن غيرهم من مبدعي الشُّعوب بأَنَّهُم يريدون «سلالهم من غير عنب»، لا يريدون جزاءً ولا شكوراً،

لا ينتظرون مدحاً ولا ثناءً، كل ما يشغل بالهم هو كيفية تجاوز العثار والمزالق والمكائد... التي تلقى أمامهم عمداً. فهل يحق لمبدعي أمم الأرض ما لا يحق لمبدعينا؟!

قطعاً لا، فالمبتكر مبتكر، والشاعر شاعر، والروائي روائي، والمفكر مفكر، في أي بقعة عَلىٰ الأرض أو تحتها، ولٰكنَّ الحاضنة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة هي التي تُنمي واحداً في مكان وتميت آخر في مكان آخر، وقليل من البحث يرينا كم من موهبةٍ مبدعةٍ دفنت حيةً في وطننا، وكم بذرة موهبة من وطنَّنا أنبتت في الغرب حَتَّىٰ بزت مبدعيَّه وتفوقت عليهم، ليس لتفضيلهم مبدعينا عَلىٰ مبدعيهم بل لحسن تقديرهم لما تصنعهُ المواهب الخلاقة وما تقدِّمه للمجتمع والأمة. ورُبَّما لذلك قيل: «ليس للعبقرية وطناً».

وطننا الآن ليس وطن عبقريات لأنَّ العبقرية موؤودة في رشيمها وإن خرجت من البذرة فإنَّ للتخلف ألف رجل ورجل متأهبة لسحقها، فإن قاومت هٰذه الأرجل كلها لم تجد في نهاية الدرب من ينتظرها أو يأخذ بيدها؛

أيعقل أن يعلن أشهر روائي عربي وهو عَلىٰ مشارف الثمانين أن من مردود رواياته لا يكفيه ضروريات حياته في حين أن كتاباً واحداً في الغرب يكفي مؤلفه العمر كله من دون أن نبالغ في ذٰلك؟

أيعقل أن يعيش مؤلف في الثمانين وبعد أكثر من مئة كتاب مطبوع في بيت بالأجرة لعدم تمكنه من جمع ثمن بيت؟

وفي مثل حالهما شاعر تغنت الأجيال بشعره وغيرهم وغيرهم...

وما أكثر من سحقهم المخفقون والجهلة والمتسلطون عَلىٰ مواقع يخافون عليها لأنَّهُم ليسوا أهلاً لها، فماتت حقوق هؤلاء المبدعين في الإبداع وهو أقل الحقوق، وفي التَّعبير عن ذواتهم وهو من مسلمات الحقوق، وفي الفرحة بإنجازاتهم وهي أعز الحقوق، وبموت هٰذه الحقوق يموت أصحابها وإن ظلت الأنفاس تتردد في رئاتهم.

فيا تعس أمة لا تحنو عَلىٰ عباقرتها، ولا تعرف كيف تحميهم وتداريهم من معتويها وأقزامها هي ذاتها... ومن غيرهم من الخارج.

إن محاربة المبدعين والموهبين في مجتمعاتنا تتم عبر أكثر من آلية لا تقل أي منها خطورة عن الأُخرىٰ، ولٰكنَّهَا تتأتى من سبيلين كلاهما يمكن ردَّه إِلىٰ العقلية الاجتماعية المتخلفة أو إِلىٰ التخلف بمعنى أو بآخر.

السَّبيل الأول هو الجانب المؤسِّسي أي المتسلِّطين عَلىٰ منابر الثَّقافة والإعلام الذي يتحكَّمون بقرارات النشر والتعميم والتعويم الذين سبق الكلام فيهم عرضاً وجوهراً قبل قليل. وهؤلاء لو أَنَّهُم كانوا مبدعين حقًّا وموهوبين حقًّا لما صدرت عنهم هٰذه الممارسات العدوانية في محاربة المواهب والمبدعين من الشباب أو غير الشباب. والغريب كل الغرابة هو صبر المؤسسات السياسية عليهم وهي التي عينتهم وكلفتهم.

كثيراً ما أتساءل ويتساءل الكثيرون كيف تقبل الدولة أيُّ دولة أن يوجد أمثال هٰؤلاء الإمعات عَلىٰ رأس المنابر الإعلامية والثقافية؟

أيعقل أن السلطات السياسية في بلداننا العربية لا تعرف ما يفعله هٰؤلاء الإمعات الأقزام في تحطيم الثقافة والإبداع؟

لا يمكن إعفاء المؤسّسات السّياسيَّة الرسميَّة التي تعيِّن هٰؤلاء من مسؤولياتها تجاه ما يفعله هٰؤلاء الأدعياء الانتقائيين في حرما الوطن من المبدعين الحقيقيين والمواهب الخلاقة.

السبيل الثاني هو العقلية الاجتماعية المتخلفة بحد ذاتها هي أيضاً المنتج والحامل لأولئك الذي يتصدرون المشهد الإبداعي، فالعقلية المتخلفة تصفق للأدعياء والمنافقين والأفَّاقين وفي الوقت ذاته تحارب المبدعين الحقيقيين الصَّادقين؛ أخلاق المتخلِّف تقوم توقير من في موقع السلطة وتصديقه وتبجيله واللهاث وراءه، وفي المقابل من ذٰلك تقول عَلىٰ تحقير الطيب الضعيف ولو كان هو الصادق والأصيل والنبيل وهو المبدع الحقيقي.

في المقال القادم سيكون الحديث عن أنموذج مقابل لأخلاق الحضارة في التعامل مع الموضوع ذاته.

أخلاق التخلف

سحق الموهوبين

هٰذا الفصل مكتوب وأكثر فصول هٰذا الكتاب، ما عدا ما سيشار إلىٰ تاريخه، في أواخر الثَّمانيات وأوائل التسعينيات، ولم أعثر عَلىٰ تاريخ كتابته عَلىٰ غير عادتي ولٰكنَّهُ موجود بَيْنَ أوراقي في الشام، والشام بعيدة عني اليوم بعداً هائلاً. وقد تأخر نشره لما يتحدث عنه هٰذا الفصل وغيره، نشر بعنوان: المبدعون في محارق الفاشلين. الثقافة الأُسبوعية. دمشق. العدد ٨. في ١٩٩٦/٣/٩م.

الكتابة والبحث ضربٌ من ضروب الإبداع، والإبداع تميُّزٌ، وكلُّ تميُّزٍ تفرُّدٌ عن الآخرين، وكلُّ تفرُّدٍ صَعْبٌ، ولولا صعوبته لما كان تفرداً، ولولا كان تفرداً لما كان تميزاً.

ولذلك كان الإبداع بمختلف صنوفه وميادينه أمراً مخصوصاً بقلّةٍ من النَّاس هم من حَبَاهم الله بنعمة التَّميُّز بامتلاك موهبة خاصَّة بهٰذا الميدان أو ذاك.

ولٰكن عَلىٰ الرَّغْمِ من ذٰلك، أي عَلىٰ الرَّغْمِ من أن الإبداع موهبة وملكة خاصَّة توجد عند عدد محدود من النَّاس لا كل الناس فإنَّ امتلاك الموهبة لا يعني بالضرورة أنَّ ممتلكها سيصيرُ مبدعاً، وإنَّمَا بحاجة إلىٰ التَّدرُّب والتَّمرُّس في الميدان الذي يمتلك موهبة الإبداع فيه، ومن لم يفعل ذٰلك ستكون موهبته وعدمها سواء. ولذلك لم يكن القدماء يأنسون بقول كلِّ مدعٍ أَو يثقون فيه وإنَّمَا كانوا يشترطون أن يشهد له أكفياء مشهود لهم بالكفاءة والخبرة الكافية لمنح الثقة للآخرين، لمنح الآخرين شهادة مزاولة الإبداع. والكثير من المثقفين والمهتمين يعرفون قصَّة **أبي تمام** حين نَظَمَ الشعر، وكان صغيراً، فبحث عن شاعرٍ كبيرٍ يجيزه فاستوسط **المقدام** عند ابن عمه **المُعَلىٰ بن العلاء الطائي**، فذهبا إليه معاً، وعندما دخلا قال **المقدام**: إنَّا جئناك لحاجةٍ.

قال **المعلى**: وما هي؟

قال: إنَّ هٰذا الفتى ابنُ عمٍّ لك من طيء.

قال **المعلى**: حباه الله، ما شأنه؟

قال: ذكر[١٠] أَنَّهُ عمل شعراً في أمير المؤمنين، وأحبَّ أن يعرضه عليك ويشاورك فيه، فإن استحسنته وأمرتَ بإظهاره فعل، وإن استقبحته وأمرته بإخفائه طواه.

قال: أنشدنا يا بن أخي.

فأنشده.

فقال **المعلى**: يا بني أهذا الشِّعر لك؟

قال: نعم يا عمي.

قال أعد عليَّ.

فأعاد.

فأخرج **المُعَلىٰ** من عُبِّه قراطيس، فخرقها، ثُمَّ قبض عَلىٰ لحيته وقال لنفسه: أنا شاعر النَّاس منذ كذا وكذا، قبضت جوائز في مواطن لم يقبض فيها **أبو نواس** ولا **مسلم بن الوليد**، ويأتي هٰذا الغلام اليوم بمثل هٰذا الشِّعر، وأنا آتي بمثل هٰذه الأشعار؟! يُعْطِي **المعَلَّىٰ** اللهَ عهداً لا قال شعرا أبداً...

وكان **المعَلَّىٰ** عَلىٰ عهده ووعده، فاعتزل الشِّعر، ومجالس الشُّعراء عَلىٰ الرَّغْمِ مما له من عظيم مكانة، حَتَّىٰ إنَّ **المأمون** لما جلس للناس، طلبه فلم يجده حاضراً، فبعث إليه، فأتاه، فقال له: ما الذي أخَّرَكَ عنا في هٰذا اليوم؟ فقصَّ عليه قصَّته مع **أبي تمام** ويمينه بألا يقول شعراً أبداً... فكان ذٰلك سبب استحضار **أبي تمام**، فأحضره وسمع منه ما أعجبه فأعطاه عشرة آلاف درهم. وأعطىٰ **المعَلَّىٰ** مثلها لانصرافه وإيفائه **أبا تمام** حقَّه.

(١٠) . لاحظوا هنا قوله: (ذكر أنه قال شعراً)، وكأَنَّهُ يريد أن يقول: زعم أنه يقول شعراً.

هٰذا هو السلوك الأخلاقي بالمطلق سواء أكانت الأمة في ذروة الحضارة أم حضيض التخلف. الأخلاق هي الأخلاق مهما كانت الظروف والمعطيات وطبيعة الحياة. ولٰكنَّ هٰذا السلوك الأخلاق في كثير من المجتمعات وقد تكون كلها إنما يكون عندما تكون الأمة في حالة تحضر ورقي، أي عقليتها الاجتماعية في حالة تحضر ورقي. وخلاف ذٰلك بل عكسه هو ما يظهر في الأمة ويستشري عندما تنهار الأمة وتكون في حالة تخلف فتنهار مع تخلفها القيم وتتشوه العادات والتقاليد... وتنقلب منظومة القيم بالمجمل من حالة الفاعلة الإيجابية إلىٰ حالة الفاعلية السلبية والإحباطية عَلىٰ مختلف الأصعدة والمستويات ومختلف الميادين.

وعَلىٰ ذٰلك ليس بدعاً من الخيال إن قلنا إنَّ هٰذه القصة؛ قصة **المعَلَّىٰ**، واحدةٌ من عشرات، بل رُبَّمَا مئات القصص المشابهة لها في ولادة الشُّعراء، وفي إجازة الشُّعراء. ليس الأمر في الشعر فقط فكذلك الأمر في مختلف الميادين، ومن هٰذا مثلاً شأن الكتَّاب الذين كانوا ينحلون كتاباتهم في بدايات أمرهم لمعرفة آراء العلماء والناس فيما يكتبون قبل أن يعلنوا أنفسهم كتَّاباً، ولذلك كثرت الكتب المنحولة في التراث العربي.

ومع **أبي تمام** ذاته كانت حكاية أُخرىٰ تشهد بالأخلاق الحضارية للمبدعين والنقاد في تعاملهم مع المواهب الشابة والجديدة والإبداعات المتميزة، فبعدما لمع نجم **أبي تمام** كان لما سئل شاعر أو نفر من شعراء عصره عن شعر أبي تمام أجابوا: «إما أَنَّهُ الشاعر وكلنا لسنا بشعراء، أو أننا الشعراء وهو ليس بشاعر». فقد كانت **لأبي تمَّام** لغة شعرية وصور شعرية مختلفة كل الاختلاف عن الشعر العربي السابق عليه، وهٰذا أمر يدركه أهل الاختصاص والخبرة. وكان

جوابهم هٰذا تأكيداً لعبقرية **أبي تمام** واعترافاً بتألقه إلىٰ حدٍّ أنَّهُم لم يخلوا أن ينزعوا عن أنفسهم صفة الشعراء اعترفاً بتميز **أبي تمام** تميزاً بالغاً.

وعرفنا كذلك كيف أنَّ الفقيه أو الكاتب أو العالم لا يقدِّم نفسه في شيء من ذٰلك حَتَّىٰ يشهد له واحدٌ من فحول الميدان الَّذي يعمل فيه أو أكثر، لأَنَّهُ لم يكن يسمَّىٰ الشَّاعر شاعراً ولا الأديب أديباً والكاتب كاتباً... ما لم يجزه عالم علم من حقِّهِ أن يجيزَ. ولذلك اتسمت الكتابة كلها في تراثنا الحضاري بالأمانة ولم نعرف من ملايين الكتب الَّتي خلفها لنا أجدادنا كتاباً مسروقاً، ولا نصًّا مسروقاً، فما من أحدٍ أورد فكرةً، أو عبارةً، أو نصًّا إلا ونسبه لصاحبه بأمانة، أو ما يزعم الغرب، الذي هو أبعد ما يكون عن الأمانة العلمية مقايسة إلىٰ العرب والمسلمين عَلىٰ الأقل وعَلىٰ الأقل في مئات السِّنين التي بدأت بعصر النَّهضة الأوروبيَّة إلىٰ بضع عشرات من السِّنين خلت، أَنَّهُ كرسه تحت اسم الأمانة العلمية والتَّوثيق.

قلت أنَّ هٰذه هي الأخلاق والأخلاق هي الأخلاق بغض النظر عن مستوى الأمة تخلفها وتحضرها، أعني بذلك أنها السلوك المنطقي من الخلوق الأمر الذي يجب أن يكون في أي زمان ومكان بغض النظر عن مَدَىٰ تردي العقلية الاجتماعية والحضارية للأمة. وأضرب عَلىٰ ذٰلك مثالاً معاصراً بل مثالين عَلىٰ أخلاق النبلاء، ووقتنا المعاصر لا يخلو من هٰذه الأمثلة بطبيعة الحال؛ فالنبلاء موجودون لا يمكن أن يغيبوا وإن كنا قلما نراهم في زحمة الغثاء والوخم الذي يسود.

المثال الأول هو الخطاط **حامد الآمدي** كل الخط العربي في عصره. وفي الخط العربي إلىٰ وقت قريب لا يتم الاعتراف بالخطاط إلا إذا أجازه خطاط يحق

له منح الإجازة. وكان غيره من يمنح مثل هٰذه الإجازة ولٰكنَّ الإجازة منه له قيمتها السامية.

المهم في الأمر هنا أنَّ الخطاط الشهير **بدوي الديراني** في بداياته قصد إلىٰ **حامد الآمدي** في تركيا لينال إجازته، فطلب منه **الآمدي** أن يخط فخط، وطلب منه أن يغير فغير، وطلب منه أن يعيد فأعاد. فقال له **الآمدي**: ارجع بعد ستة أشهر.

استاء **الديراني** وهو الذي يعرف قدرته وموهبته، ولٰكنَّهُ كان مصرًّا عَلىٰ أن تكون إجازته من ملك الخط العربي في زمانه، فعاد بعد ستة أشهر فطلب منه الآمدي أن يخط فحط، قال له يكفي. وعاد بعد قليل لا ليخط له إجازة بل ليخط ما يلي:

«إنَّ حَامِدَ الآمِدِي يَشْهَدُ بِأَنَّ الإِجَازَةَ الَّتِي يَمْنَحُهَا بَدَوُي الدَّيْرَانِيْ تُعَادِلُ الإِجَازَةَ الَّتِيْ يَمْنَحُهَا حَامِدِ الآمِدِي».

هٰذه الشَّهادة تدل عَلىٰ مَدَىٰ نبل **الآمدي** احتفائه بالمبدع المتميز. إنها ليست شهادة عادية بحال من الأحوال.

وإن أن لا أنسى أستاذي **عادل العوا** رحمه الله الذي كان يحتفي بكل متميز ويكرمه في معاملته وتقديره وله الكثير من المواقف من هٰذا القبيل معي شخصيًّا ومع أكثر أستاذتي الذين كانوا طلابه أيضاً.

وفي المقابل، وبعود إلىٰ تراثنا الحضاري المشرق، عندما كانت أمتنا سيدة الحضارة، فإنَّ النُّقاد والمختصين ما يسمُّون فحول الشِّعر أو أئمة الشِّعر والرُّواة كان بالمرصاد من جهة أُخرىٰ لمن يتعدَّىٰ عَلىٰ الشَّعر قيمة أو سرقة... ولم يعرف العرف سرقة الشِّعر وإنما السَّرقة التي يحاكمون عليها هي سرقة الفكرة أو الصُّورة،

ورُبَّما لم توجد مثل هٰذه الظَّاهرة إلا في الشِّعر. وكانوا يقيمون الدُّنيا ولا يقعدونها إذا اكتشفوا أنَّ شاعراً يظن أَنَّهُ اعتمد محض الاعتماد ومحض الظَّن عَلىٰ صورة سبقه إليها شاعر غيره. وكثيرون يذكرون قصَّة ليلةَ أَنَشْدَ **المتنبي** ميميَّته المشهورة في **سيف الدولة** كيف كان يشب إليه الشُّعراء بَيْنَ الفينة والأُخرىٰ ليقولوا له: «هٰذا سرقته من فلان في قوله كذا.. وهٰذا من فلان، وهٰذا من فلان..»، وكل ذٰلك لتشابهات في الصُّورة أَو الفكرة لا يدركها رُبَّما حَتَّىٰ بعض المختصين... فكيف لو ثبتت السَّرقة؟!

هٰذه الظَّاهرة مختلفة تمام الاختلاف عن التَّرصُّد للمبدعين ومحاصرتهم وعرقلتهم ووضع الصِّعاب في طرقهم. هٰذه الظَّاهرة تمثل حماية وصوناً لفنِّ الشِّعر، أو سواه، من السَّرقة والأدعياء، مثلما كانت إجازة **أبي تمام** من **المعَلَّىٰ** حماية وصوناً لفن الشِّعر من الأدعياء.

هٰذه السلوكات كما قلت هي السلوكات الأخلاقيَّة المنطقيَّة التي يجب أن تكون بغضِّ النَّظر عن مستوىٰ وعي الأمَّة الحضاري ومستوىٰ تخلفها، ولٰكنَّنا نجدها في الأمَّة المتحضِّرة بوصفها تقاليد وعادات راسخة ومتمكنة في ومن العقلي الاجتماعي والجمعي. وعَلىٰ العموم وليس بالمطلق فإنَّ المجتمع أو الأمة المتخلفة تنقلب فيها القيم بالمجمل وخاصة قيم التعامل مع المبدعين والمتفوقين والمتميزين.

وإذا كنا قد استشهدنا بما يعانيه مجتمعنا العربي والإسلامي فلأنه يعنينا أكثر من غيره، ونحن الذين نعيش في أتون نيرانه، ولٰكنَّنا قلنا إنَّ هٰذه الظاهرة ظاهرة عالمية تنتشر في مختلف المجتمعات المتخلِّفة بتنويعاتٍ وصورٍ وأساليب ترتبط بعقلية هٰذه الأمة وطبائعها الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة، ولنا في علماء مطالع

عصر النَّهضة الأوروبيَّة أمثلة كثيرة عَلىٰ ذٰلك؛ لا يختلف العلماء عن الشُّعراء فهم مبدعون مثلهم بطبيعة المبدأ والأساس مع اختلاف الصُّورة والغاية. ومن أبرز الشواهد عَلىٰ ذٰلك الحكم عَلىٰ **غاليليو غاليليه** بالإعدام لأَنَّهُ قال إن الأرض تدور حول الشَّمس، حَتَّىٰ وجد نفسه مرغماً عَلىٰ التَّراجع عن أقواله للنَّجاة بنفسه من جور قومه الأغبياء.

قوم **غاليليو** الأغبياء ليسوا أغبياء بالفطرة ولا الطَّبيعة، هم أغبياء بحكم تخلُّف المجتمع الذي تنقلب فيه القيم فيحارب الصَّواب ويؤازر الخطأ. قوم **غاليلو** إذن هم قومنا اليوم بطبيعة التَّماثل التَّاريخي والحضاري.

تعالوا الآن نتذكَّر كيف أنَّ **المعَلىٰ** أقسم ألا يقول شعراً بعدما تفوَّق عليه طفلٌ صغيرٌ!! شعر أَنَّهُ سيكون صغيراً أمامه فآثر الاعتزال وهو لم يسرق صورة ولا فكرةً... فقط لأَنَّهُ كبيرٌ وعظيمٌ تفوَّق عليه طفلٌ صغيرٌ. لم تأكله الغيرة ولا الحقد ولا حطَّم الطَّفل ولا فكر في تدميره، ولا حَتَّىٰ أحبطه ولا وضع العراقيل أمامه ولا حَتَّىٰ أنكر عليه عظمته...

المعَلّىٰ بأخلاقه هٰذه ابن أمَّة متحضرة، ولو أَنَّهُ هو ذاته ابن عصرنا هٰذا في أمتنا هٰذه لكان من المحتمل المرجح أن لا يختلف عن الأكثرية الموتورة في تعالمها مع المواهب الشابة والجديدة. وخاصَّة إذا كان مسؤولاً عن منبر ثقافي أو إعلامي.

وهٰذه الفكرة هي التي تستحق الوقوف عندها قليلاً في ختام هٰذا المقال. إنَّ المسؤولين عن المنابر الثقافية والإعلامية في مختلف دولنا العربية وحَتَّىٰ الإسلامية هم أبناء النظم السياسية الحاكمة، هم الذي ولَّتهم هٰذه الأنظمة المسوؤليات عن الحراك الثقافي والإعلامي، وبالتالي فهم يمثلون عقلية هٰذه

الأنظمة ومطالبها وغاياتها ويصعب الفصل بَيْنَهما في حال من الأحوال. وإلا كما تساءلت من قبل في غير هٰذا الموضع:

أيعقل أنَّ السُّلطات الحاكمة في هٰذا البلد أو ذاك التي تعرف مخابراتها كلَّ شاردةٍ وواردةٍ عن أيِّ مواطن أن لا تعرف هٰؤلاء المسؤولين الذين ولَّتهم أَنَّهُم يقومون بمحاربة المبدعين والمواهب المتَّميِّزة؟

ولا أطيل فيما أيضاً لم أسهب فيه من قبل، فإنَّ هٰذه الممارسة هي نتيجة عقلية اجتماعية متخلفة مهماً كانت الصُّورة، ولٰكنَّ الذي لا بُدَّ من الإشارة إليه هنا هو أنَّ محاربة المبدعين والمتميِّزين والموهوبين من قبل رؤوس ومشرفي المؤسَّسات والمنابر الإعلاميَّة والثَّقافيَّة مع علم الأنظمة أو السلطات الذي لا يمكن إنكاره يعني أنَّ المؤسَّسات السِّياسيَّة الحاكمة تهدف إلىٰ إقصاء المواهب الحقيقية والجادة وإقصاءها من السَّاحة من أجل أهداف ومشاريع تعكف عليها تقول فيما يبدو عَلىٰ تستطيع الوعي والعقل المجتمعي من خلال نشر الثقافة المبتذلة بل رُبَّما يكون نشر الثقافة المبتذلة بحد ذاته هدفاً لهٰذه المؤسَّسات السِّياسيَّة بتولية الأقزام والإمعات والطُّبول مسؤوليات إدارة الفكر والثَّقافة والأدب والإعلام، لأنَّ هٰذه الإمعات بذور نفاق حاضرة جاهزة للتَّطبيل والتَّزمير وعدم معارضة السُّلطة فيما تقرِّر وتفعل وتسعى إليه.

وأخطر سؤالٍ يفرض ذاته هنا هو:

ـ لو كانت هٰذه النَّخب الحاكمة تهدف إلىٰ أهدافٍ نبيلةٍ أو صحيحةٍ عَلىٰ الأقل هل كانت لتفعل ذٰلك؟

. هل كانت لتحتاج من ينافق لها ويروج لها؟

هٰذه الأنظمة التي تولي هٰؤلاء الأقزام عديمي الموهبه منابر المسؤولية عن الثقافة والإعلام وتنيط بهم عَلىٰ نحو مباشر أو غير مباشر أو عَلىٰ الأقل تسمح لهم أن يمارسوا عقد نقصهم في إحباط المواهب الشابة الجادة والحقيقية ومحاربتها ومحاصرتها وعدم فتح المنابر أمامها... لو أنَّهَا، أعني الأنظمة هٰذه، كانت ذات أهداف نبيلة أو شريفة أو صحيح أو تصب في مصلحة الوطن والأمَّة تحت أيِّ بند أو درجة أو مستوى أو طريقة لما قامت باختيار الأسوأ والأقل موهبة لتسنيمهم مسؤوليات إدارة منابر الثقافة والإعلام والفكر. ناهيك عن إدارة المؤسسات الأُخرىٰ الصناعية والاقتصادية والتجارية والاجتماعية وغيرها.

النِّظام السِّياسي الحاكم وليد الشُّعوب بطبيعة الحال؛ إن كانت متخلِّفة أو متحضِّرة، وهٰذا أمر لا ننكره ولا نعترض عليه، ولٰكنَّ الأنظمة الحاكمة هي التي تتحمَّل المسؤوليَّة الفعليَّة والأساسيَّة والأولىٰ في النُّهوض بالمطلق ومنه نهضة الشَّعب. وإنَّهُ لمن أعجب العجيب أن تحاول تخيل أنَّ الأنظمة الحاكمة في العالم العربي تعادي شعوبها وتعادي تاريخها وتعادي تراثها... بل الأخطر من ذٰلك أَنَّهَا تعادي كلَّ مصالح الشَّعب والأمة.

هٰذا ما لا يمكن تخيله.

نعم، هٰذا ما لا يمكن تخيله.

أخلاق التخلف

المقلاة

وسرير بروكست...!

لهذا الفصل/ المقال مكتوب في أيلول عام ٢٠٠٥م جزءاً وامتداد لمقال لي عن كتاب جميل صليبا حمل عنوان: جميل صليبا بَيْنَ الحقيقة والخيال . الذي نشر حينها في جريدة البعث . دمشق . العدد ١٢٧٠٣ . الجمعة ٧ تشرين الأول ٢٠٠٥م الموافق لـ ٤ رمضان ١٤٢٦هـ.

تـروي الأسـاطير الإغريقيَّـة أنَّ قـاطع طريـق اسمـه **بروكســت** وكـان في الأصـل حـدَّاداً. وأنَّ قـاطع الطَّريـق هٰـذا كـان مولعاً بالقيـاس؛ قيـاس الأطـوال ولـيس القيـاس المنطقي.

كان يجرِّد النَّاس من أمتعتهم ثُمَّ ثيابهم، ثُمَّ يمدِّدهم عَلىٰ سرير من حديد، فمن كان أطول من السَّرير قصَّ **بروكست** له رجليه حَتَّىٰ يتساوى مع طول السَّرير، ومن كان أقصر من السَّرير كان **بروكست** بشدُّ رأسه ورجليه بحبالٍ حَتَّىٰ يتساوى طول جسمه مع طول السَّرير!!

أَخَذَ المرحوم **جميل صليبا** هٰذه الأسطورة، التي هي واقعنا اليوم، وعلَّق عليها في مقال حمل عنوان: لنحطِّم موازين **بروكست**، في كتابه من الحقيقة إِلىٰ الخيال. وبدأ **صليبا** تعليقه أَو قراءته للواقع العربي المعاصر من خلال هٰذه الأسطورة بقوله: «لقد ذكَّرتني أسطورة **بروكست** هٰذه بما جرى إليه أمر النَّاس هٰذه الأيام في الحكم عَلىٰ الأشياء بالخير والشَّر».

أتَّفق مع أستاذنا المرحوم **جميل صليبا** في العنوان والمضمون والتَّعليق الاستهلالي عَلىٰ الأسطورة. ولكِنِّي سأنظر إِلىٰ الموضوع من زاويةٍ أخرى، وبرؤيةٍ مكملةٍ لما بدأه الدكتور **صليبا** الذي هو بلا مراء أستاذنا كلنا في بلاد الشَّام خاصَّة وفي العالم العربي لا ينكر قيمته وتاريخه إلا جاحد.

قبل أن ننظر في أسطورة **بروكست** ودلالاتها التي تعنينا لنظر في أسطورة واقعية ليست من بدع الخيال هي. إذ يظل يعنُّ عَلىٰ بالي أن أعيد عليكم قصة العروس؛ تلك العروس التي حدَّثني عنها صديق لي في يوم من الأيام.

بعد العرس بأيام، العريس يريد أن يتغذَّىٰ، فجاء بكليوغرام من اللحم الهبرة، وأعطاه للعروس وقال لها:

. اقليهم كلهم خلِّنا نتغذَّىٰ...

وعقَّب عَلىٰ الطلب قائلاً:

. وأنا سأنام قليلاً ريثما تنتهي من قليهم.

ونام العريس... نام ظهراً... وأفاق مساء.

فتح عينيه فوجد الدُّنيا عتمة. هزَّ رأسه استغراباً واستعجاباً واستدهاشاً... وأخذته الظُّنون، فهبَّ من السَّرير واقفاً وهرع إلىٰ المطبخ ليتأكَّد مما إذا كانت العروس ماتت أم ما زالت عَلىٰ قيد الحياة، موجودة أم حدث لها شيء أم شيء غير هٰذا الشيء. فوجدها ما زالت تقلي اللحم.

وقف خلفها بهدوءٍ وراح يراقبها، فيما هو يلتقط أنفاسه من حال الهلع التي أصابته عليها. كانت تقلي قطعة لحمٍ صغيرةٍ حَتَّىٰ تنضج وتضعها في الصَّحن، ثُمَّ تقلي القطعة التالية حَتَّىٰ تنضج وتضعها في الصَّحن... وهٰكَذا.

الأنفاس التي كان يلتقطها من الهلع الذي أصابه عليها صارت تلتهب غيظاً منها. ولم يستطع أن يتمالك نفسه من الغضب، والجوع الذي أصابه، وقال لها:

. لماذا تفعلين ذلك؟ لماذا تقلين اللحم قطعة قطعة هكذا؟

أجابت بهدوء وبرود وثقة:

. هٰكَذا أمِّي علَّمتني.

كان في رأسه عقل وطار. وقال بغضب شديد:

. أمكَّ؟! أم أم مممم مك؟! والله لألعنن سنسفين أمك.

وذهب إِلىٰ الهاتف واتصل عَلىٰ الفور بحماته، وقال لها:

. تعالي فوراً، فوراً، فوراً يعني فوراً، يجب أن تكون عندي خلال دقائق.

وبالفعل، ما هي إلا دقائق حَتَّىٰ كانت حماته تقرع الجرس. فتح الباب وسحبها من يدها شحطاً إِلىٰ المطبخ، هي تقول:

. ماذا هنالك؟

وهو يقول:

. اسكتي وتعالي.

حَتَّىٰ وصلا إِلىٰ المطبخ، فقال لها:

. هل أنت علمت ابنتك أن تقلي اللحم هكذا قطعة قطعة؟

ضحكت حماته وأخذها الجرح، وقالت:

ـ لا يا ابني، لا، نحن ما عندما مقلاة كبيرة، عندنا مقلاة صغير هٰكَذا، (وأشارت بيدها ما يشبه حجم قبضة اليد مفتوحة قليلاً)، ولذلك عندما نقلي نضطر أن نقلي قطعة قطعة.

لا ندري ماذا حدث بعد ذٰلك. المشهد توقف هنا. ولأيِّ واحدٍ أن يفكِّر بطريقته.

ولٰكن مهما اختلفت وجهات النَّظر؛ في الأسطورتين، في الحكايتين، في الخرافتين... سمِّهما ما شئت: نحن أمام مأساة واحدة هي ما يطلق عليه التَّفكير

الخطِّي. التَّفكير الخطي الذي يساوي بَيْنَ الصُّور المتشابهة مع اختلاف المضامين، مثلاً: قلي اللحم بقي كما هو مع تغير الحال والمضمون.

هٰذه الصورة، هٰذا المثال يبدو واضحاً، ولٰكن كم من البشر يفكرون بهذه الطريقة وهم لا يدرون؟

قد تبدو قصة المقلاة واقعية جدًّا لدى الكثيرين، وقل من يعترض عَلىٰ ذٰلك، وهي فعلاً كَذٰلكَ وليست اختلاقاً. ولٰكنَّ بالكاد الكاد يمكن أن تجد من يقبل الاقتناع بأن حكاية **بروكست** يمكن أن تكون واقعية، لا أحد يقبل بها إلا عَلىٰ أنَّها خرافة وفي أحسن الأحوال أسطورة استناداً إلىٰ أنَّها بالفعل أسطورة من التراث الإغريقي. ولٰكنَّها في الحقيقة ليست بعيدة عن الواقع بحال من الأحوال. انظر في الواقع تجد الكثير من أشباه هٰذه القصَّة في المبدأ.

لا أريد القول إنَّ هٰذه العروس تمثل عقلية المجتمع المتخلف أو الأمة المتخلفة وأخلاقها، فهذا الأنموذج فردي؛ بلاهة فردية بكل تأكيد، مثل هٰذا السلوك بحدِّ ذاته لا يعدو كونه بلاهة فردية. وحَتَّىٰ سلوك **بروكست** لا يعدو كونه ساديَّة فردية، عته فردي، بلاهة فردية. ولٰكنَّ السلوكين كليهما متفقان في المبدأ والنتيجة، متفقان في الشكل والصورة مع ما يبدو بَيْنَهما من تباعد.

كلا السلوكين تفكير خطِّيٌّ هو الذي أسميه تفكير القرود كما قد أبيِّنُ لاحقاً إن توافرت الفكرة أو الظَّرف المناسب.

هٰذا التَّفكير الخطِّي مثلاً سائر مفردات الأخلاق أو القيم الأخلاقيَّة موجود في كل مجتمع وفي كل زمان وفي كل مكان ولا يمكن إنكار ذٰلك ولا نفيه بحال من الأحوال. ولٰكنَّه كما قلنا من قبل في المجتمع المتحضر هو سلوك فردي، حالة فردية عديمة الفعل والأثر والفاعليَّة والقيمة... لأنَّ المجتمع المتحضر أصلاً

أكبر وعياً بكثير من أن يسمح لهٰذا السلوك أن يؤثر فيه وإن كان رُبَّما يحتاج إليه للتفكه والتنويع...

أمَّا في المجتمع المتخلِّف، في الأمَّة المتخلِّفة فإنَّ القيم الأخلاقيَّة بالمجمل تنقلب وتتسطح وتفقد دلالتها بل دلالاتها وتنتشر السُّلوكات الأفعال والقيم اللا أخلاقية وتسود في المجتمع لانعدام الضَّوابط والرَّوابط وانعدام القانون بل بالأحرى انعدام سيادة القانون لأنَّ المشكلة عندي في سيادة القانون لا في القانون بحدِّ ذاته. والقانون هو مسؤولية السلطة الحاكمة في أيِّ مجتمع أو أمَّة؛ السُّلطة الحاكمة هي التي تجعل القانون سيِّداً أو مداساً؛ فإذا كان القانون مداساً فلا ضوابط للعقل ولا للتَّفكير ولا الأخلاق وتتحول الحياة إلىٰ غابة أسوأ من غابة الوحوش لأنَّ الصِّراع من أجل البقاء بَيْنَ الوحوش محكوم بقوانين وضوابط، بَيْنَما إذا كان هٰذا هو القانون الذي يعمل به البشر فإنَّهُ لن يكون هناك حدود لوحشيتهم.

كثيرون وحَتَّىٰ بعد هٰذا الشَّرح والتَّعليق والتَّوضيح سيظلُّون يتعاملون مع حكايتي المقلاة وسرير **بروكست** عَلىٰ أَنَّهُما من باب الفكاهة والتَّندُّر وتطرية الأجواء. يمكن تجاوز ذٰلك وابتلاع مره عَلىٰ مضض فيما لو اقتصر السَّرد عَلىٰ الحكايتين وحدهما. ولٰكنَّ الأمر سيكون مؤلماً بعد هٰذا الشرح والتَّعليق.

التَّفكير الخطي الذي هو سمة للعقلية المتخلفة عَلىٰ نحو فردي وعَلىٰ نحو جمعي؛ أي سمة العقل الفردي المتخلف وسمة عقلية الأمة المتخلفة التي تطبع الجميع بميسمها ويكون الجميع أسرى هٰذا النَّمط من التَّفكير... وتؤدِّي إلىٰ هٰذه النمطية من التَّفكير إلىٰ نتائج كارثية عَلىٰ مختلف المستويات والموضوعات والميادين في المجتمع والأمة.

خطـورة هٰـذا التَّفكـير الخطِّـي تكمـن في طبيعتـه وفي تسـلله إلىٰ كـل موضـوعات التَّفكـير وإلىٰ كـل القـيم الأخلاقيـة والاجتماعيـة والتربويـة... بهـذه المقايسة الخطية وهي بطبيعتها حمقاء وبلهاء يحسد الغنيُّ الفقير، وإلىٰ الغني قيس نفسـه الفقـير... وعَلىٰ هٰـذا الشَّـكل تـابع المسـير لتـدرك معـنى أنَّ الجاريـة تلـد سيدتها، ومعنى أنَّ الخائن هو الأمين، وأن الصَّادق هو الكذوب وأن الكذوب هو الصادق... المسألة أطول من ذٰلك بكير وأخطر من ذٰلك بكثير...

المشـكلة أيُّهـا الَّسـادة هـي في طبيعـة البشـر الـذين يفكِّـرون بهـذه الطَّريقـة ومكاناتهم ومسؤوليَّاتهم. الإنسان العادي يخطئ فيعود عليه خطأه، ولكن عندما يفكر المدرِّس بهذه الطَّريقة فإنَّهُ يدِّمر أجيالاً متتالية، وعندما يفكر محافظ/ والي بهذه الطَّريقة فإنَّهُ يدمِّر مجتمعاً، بنية اجتماعية، وعندما يفكر الرئيس أو الملك بهذه الطَّريقة فإنَّهُ يدمِّر أمَّةً كاملةً بشعبها وقيمها وتاريخها ومستقبلها.

والمصيبة فوق ذٰلك هي أنَّ النَّاس تصفِّق لمن يخدعها ويفكِّر بهذا الغباء وهٰذه البلاهة.

التفكير الخطي
هكذا تفكر القرود

هـذا الفصـل/ المقـال مكتـوب في ١٥/ ٥/ ٢٠١٤م، وينقسم في الحقيقة إلى أقسام أربعة الأول منها هو الذي كتب في هاذ التاريخ والتالثية كتبت قبل ذلك منها ما كتب قبل ذلك بأشهر، وآخر كتب قبل ذلك بسنتين، وكلها نشرت في وقتها في صفحتي في الفيس بوك أو في مواقع نشر إلكتروني أخرى.

تحـدَّثت كثـيرا في التَّفكـير الخطِّـي.

التَّفكـير الخطـي تشـبيهاً تقريبيـاً هـو تفكـير القرود، بل أسميه تفكير القرود بسبب حكاية نكتة مختلقة بطبيعة الحال كما سنرى. فماذا نعني بتفكير القرود؟

يروى أنَّ أحد كبار المسؤولين السوريين يوماً ما ذهب إلىٰ فرنسا في زيارة رسميَّةٍ، وهناك كانت له زيارة إلىٰ حديقة الحيوانات بباريس.

فيما هو والوفد المرافق له يجولون في الحديقة مرُّوا بقفص القرود، وما إن رأتهم القرود يسيرون وهو بَيْنَهم حَتَّىٰ هاجت وماجت وراحت تخبط بقضبان القفص...

استغرب الجميع ذٰلك فتوقفوا. ولاحظوا أَنَّهُم كلما همُّوا بالابتعاد عنهم عادت القرود إلىٰ الهيجان من جديد، فما كان منهم إلا أنَّ جاؤوا بالمختص بالقرود ليجلو الحدث. فدخل إليهم وخرج بعد قليل وقال:

. غاضبون ومستنفرون...

. لماذا؟

قال: يقولون لماذا الظُّلم... إمَّا أن نكون كلُّنا في القفص أو كلُّنا خارج القفص... ذٰلك (وأشار إلىٰ المسؤول السوري) لماذا يسير معكم وليس معنا في القفص...

القرود ظنَّت أنَّ ما تشابه في الشَّكل متشابهٌ في الجوهر. كلُّ ما يشبه قرط الموز موز، كلُّ شي كروي بطيخ... كلُّ قصير وأسمر قرد...

ما أسهل أن تقيس الناس كلهم بمسطرة واحدة، وما أكثر البشر الذين يمارسون هٰذا التَّفكير الخطي، تفكير الذي تعلم أنَّ كلَّ من يقف عَلىٰ رجلين فهو إنسان فلَّما رأى القرد قال عنه: هٰذا إنسان، ورأى الدجاج فقال هٰذا إنسان، ورأى الكنغر فقال هٰذا إنسان... وحين وقف الفيل عَلىٰ رجليه فجأة صرخ مندهشاً وقال: لقد تحول الفيل إلىٰ إنسان، لقد تحوَّل الفيل إلىٰ إنسان...

بالمناسبة وإن بدا الحكم قاسياً إلا حقيقة وأجزم بأنها قطعية فإنَّ القرود أذكى من ذٰلك بكثير... ومن الظُّلم أن أشبِّه البشر الذين يفكرون تفكيراً خطيًّا بالقرود لأنَّ القرود أكبر من أن تفكر بهذا التَّفكير الخطي.

لست آسفا أن أقول إنَّ من يضع النَّاس كلَّهم في سلَّةٍ واحدةٍ من ناحية الذكاء أو الأخلاق أو القدرة أو الإيمان... فإنَّهُ أقلُّ ذكاء وأقلُّ تفكيراً من القرود...

لا يوجد مخرِّب للمجتمع ومدمر للأخلاق والقيم أكثر من هؤلاء الأشخاص الذين يفكرون تفكيراً خطيًّا يجعل المتساويات شكلاً متساويات جوهراً فيساوون عَلىٰ سبيل المثال هٰذه المساواة الحمقاء بَيْنَ الذَّكي والغبي، بَيْنَ الجبان والقوي، بَيْنَ الفقير والغني...بالمقايسة الخطيَّة.

كيف يمكن أن أساوي بَيْنَ ينحني ليقبل يدَ أمُّه وبَيْنَ من ينحني ليقطع يدها كي يأخذ أساورها؟؟؟

كيف أساوي بَيْنَ من يصف لك دواءً يقتلك به أو يكاد وبَيْنَ من يصف لك الدواء الشافي؟!

كيف أساوي بَيْنَ من يضعه النَّاس أمامهم ليقودهم إلىٰ النَّجاة فيقودهم إلىٰ الهلاك، وبَيْنَ من يجب أن يقودهم لأنَّهُ هو الأجدر بالقيادة ويعرف ماذا يفعل كلما تعرض لمأزق؟!

يقال إنَّ **علي بن أبي طالب** قال: «لو سكت الجاهل ما اختلف الناس». والحقيقة أنَّ المشكلة ليست في سكوت الجاهل، المشكلة اليوم في عالمنا وخاصة العربي والإسلامي هي أنَّهُ لا يوجد جاهلٌ يريد أن يعترف أنَّهُ جاهل. لو اعترف الجاهل أنَّهُ جاهل لسكت. العالم الحق يعرف حدوده. والعالم الزور هو الجاهل الذي لا يريد أن يعترف أنَّهُ جاهل. لا خوف من العالم الحق ولو أخطأ. والجاهل الذي يتفهمن، الجاهل الذي يوضع في مكان أعلى منه، الجاهل الذي يأخذ دور الفهيم أو العالم... سيخرب وهو يحسب يعمِّر أنَّهُ بل يعتقد اعتقاداً تامًّا أنَّهُ يعمر. وقد قالت العرب قديماً: «إياك وصحبة الجاهل فإنه يريد أن ينفعك فيضرك». هو يريد أن ينفعك فيضرك. إذن ليست المشكلة في النية وطيبة القلب، المشكلة في العقل والتَّفكير.

يقولون: من لا يعرف الصقر يشويه... ويأكله طبعاً.

يقولون: قدموا للحمار وردة فأكلها...

كتبت مرة عن الحمار والوردة فاعترض أحدهم قائلاً:

. الحقُّ عَلىٰ من قدَّم للحمار وردة...

قلت لهم:

. ومن ذا الذي يقدم للحمار وردة إلا ليأكلها؟

هم أرادوا أن البني آدم الحمار الذي يقدِّم نفسه أو يقدِّمه أحدٌ ليكون قائداً، ليكون حكماً، ليكون حاكماً... لن يكون أكثر من حمار... لن يكون

إلا الحمار الذي وضع النَّاسُ بَيْنَ يديه رمز الحياة والجمال والربيع فأكله، كما أكل الصَّقر لأنه لم يميز بَيْنَه وبَيْنَ الدَّجاجة.

التَّفكير الخطِّي أو تفكير القرود من أبرز مشكلات المجتمع المتخلِّف وأكثرها تعقيداً، ورُبَّما تكون أمَّ المشكلات، فالمشكلات الأُخرىٰ أكثرها ورُبَّما كلها مشكلات في سلوك معين، في قيمة معينة... محدودة الميدان والمضمون حَتَّىٰ ولو كان الأثر بالغاً بليغاً. أمَّا التَّفكير الخطي هٰذا فهو بنية تفكير، بنية إدارة كل شيء مما سبق، أي منطق حياة، أي يؤثر في كل سلوك وفعل وموقف... أي هو علة علل العقلية الاجتماعية أو عقلية الأمة المتخلفة.

المتنطعون وعصر الرويبضة

التنطع الرويبضي هو أحد تجليات التفكير الخطي أو تفكير القرود، وليس التجلي الوحيد بكل تأكيد.

كان أحد هواجسي الفكرية منذ البدايات التَّصدِّي للمتنطعين للكلام من غير علم، والاجتهاد على غير دارية ولا فهم... وأوائل أبحاثي المكتوبة ورُبَّما المنشورة أيضاً تصبُّ في هٰذا السياق.

ولم يزل هٰذا همِّي وهاجسي لأنَّ المتنطعين يتزايدون بتكاثرٍ انشطاريٍّ مربك وخطير...

إنَّهُم موجودون في كثيرٍ من الميادين والمجالات: في الدين، في السياسة، في الأخلاق، في الأدب... ولا أستبعد أن يكونوا في ميادين العلوم الطبيعية أيضاً. إنَّهُ لأمرٌ مقرفٌ أن تجد من لا يصلي ولا يصوم ورُبَّما لا يترك شيئاً من الموبقات تعتب عليه... وتجده في الوقت ذاته يريد أن يعلم المسلمين أصول الإسلام،

ويصرخ بأعلى صوته: أهكذا تطبق حدود الشرع، أهكذا هو الإسلام، لا يجوز أن يفعل المسلمون كذا أو كذا، يجب عَلىٰ المسلمين أن وأن وأن...

الأمر يصحُّ عَلىٰ التَّنطُّع للتَّحليل السِّياسي أيضاً والإفتاء في الاستراتيجيات وسياسات الدول ومواقفها من دون أن يكون لديه أي أساس في الثَّقافة السياسية وليس العلم الذي لا غنى فقط....

أينما توجهت تجد من يقرظ مواقف دول أو يذم مواقف دول أو سلوكات أو مواقف سياسية، وينصح ويوجه ولا هو لا يعرف الطِّيخ من البطيخ، ولا الخمسة من الطَّمسة...

قرأت التراث العربيَّ معظمه، وكثيراً من التراث العالمي... لم أجد في عصر من العصور انتشاراً لهٰذه الظَّاهرة كما هي منتشرة في هٰذا العصر... هٰذه الظَّاهرة التي سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرويبضة.

رُبَّما **أومبرتو أكو** الفيلسوف الإيطالي هو الذي قال أو نسب هٰذا القول الذي أعيد صوغه عَلىٰ نحوي أنا:

. «عندما تم اختراع المسدس ساوى الجبان نفسه بالشجاع. وعندما انتشر الفيس بوك ساوى الأحمق نفسه بالفيلسوف».

بما يعني أنَّ التفكير الخطي أو هٰذا التجلي للتفكير الخطي بات ظاهرة عالمية وليس لصيقة ببلدان العالم المتخلف وحسب. وتلك فيما يبدو حقيقة وتنسجم مع حكمي ونقطة انطلاقي في أخلاق التخلف القائمة عَلىٰ انعدام الرقابة وانعدام السلطة عَلىٰ الفرد في التفكير والسلوك. العالم المتحضر يقوم في أول ما يقوم عليه عَلىٰ سيادة القانون، فإذا كان القانون يطبق في دول العام المتحضر في الأمور المادية فإنَّهُ غير ممكن التطبيق عَلىٰ كلام الأفراد الشخصي

وهلوساتهم عَلىٰ صفحات التواصل الاجتماعي، ولذلك فإنَّ هٰذا التجلي من تجليات التفكير الخطر الذي سميته التنطع الرويبيضي كان ظاهرة عالمية وليست مقتصرة عَلىٰ دول العالم المتخلف وحسب.

عَلىٰ أنَّ الجدير بالإشارة إليه هنا هو أنَّ هٰذا التَّنطُّع الرويبيضي ينشر في دول العالم المتخلفة عَلىٰ نحو أكبر لأَنَّهُ سلوك ناجم عن فاعليه مزدوجة فاعلية العقلية الاجتماعية المتخلفة وفاعلية انفلات الانفعالات من الرقابة والسيطرة. فحَتَّىٰ المقارنة بَيْنَ تنطُّع أبناء المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة تعطيك مؤشرات واضحة عَلىٰ مَدَىٰ الفرق بَيْنَ أبناء العالمين ومَدَىٰ التنطع والشطح في ذٰلك بَيْنَ أبناء المجتمعات المتخلفة والمجتمعات المتطورة أو المتحضرة وهي متحضرة شئنا أم أبينا، خلاف ما يصر الكثيرون عَلىٰ الاعتراض عليه بتمييزاتٍ بهلوانيَّة.

خالف تعرف

ومما يمكن إدراجه تحت إطار التَّفكير الخطِّي أو تفكير القرود كما آثرت أن أسميه ذٰلك السُّلوك الجاهز لكلِّ المواقف المتمثِّل بما يمكن تسميه سلوك خالف تعرف الذي ينطوي بحدِّ ذاته عَلىٰ انشعابات وتفاصيل وأنواع كثيرة.

هناك بشر خلقوا لينقضوا، ليرفضوا، ليحملوا السلم بالعرض...

لا يحسنون إلا أن يرفضوا كلَّ ما يصادفون من قول أو فعل أو عمل...

إن قلت أمام أحدهم: الديمقراطية تخدم المجتمع...

قاطعك وقال عَلىٰ الفور: أضرار الدِّيمقراطيَّة أكثر من فوائدها...

وإن قلت: الدِّيمقراطيَّة فيها مخاطر...

قال عَلىٰ الفور: الدِّيمقراطيَّة أوكسجين الحضارة...

إن قلت أمامه: اللبن أبيض...

يقول عَلىٰ الفور: هو ليس أبيض أبيض تماماً...

إن قلت أمامه: اللبن ليس أبيض أبيض أبيض...

يقول عَلىٰ الفور: اللبن أبيض من البياض...

أمثال هؤلاء قد يكونون أساتذة جامعات، وشهادات أشكال ألوان، وقد يكون أيَّ إنسان، إلا أن يكون مفكراً أو مبدعاً أصيلاً...

الحقيقة هي أنَّ هٰذه النُّفوس مريضة، إنَّهَا تعاني عقد نقص الحضور، وتريد أن تثبت وجودها. ولأنّهَا خاوية فارغة فهي لا تستطيع أن تبني حضورها إلا عَلىٰ نقض الطَّرف الآخر من دون أيِّ قدرة أو إمكانيَّة ابتكاريَّة...

لا تتخيل أَنَّهُم يتقصدون أشخاصاً بأعينهم، إِنَّهُم يتقصدون فقط من يرونهم أكبر منهم حَتَّىٰ ولو كانوا واهمين في ذٰلك.

وللتَّوِّ تذكَّرت الحكمة التَّاريخيَّة التي تقول: «خَالِفْ تُعْرَفْ». إنَّهَا تختزل تحليلنا اختزالاً كبيراً ولٰكنَّهَا لا تكفي، لأنَّ الأمر ليس أمر مخالفة وحسب، إنَّهَا صورة من صور التفكير الخطي التي تقوم عَلىٰ أساس المقايسة الخطية أيضاً؛ مقايسة الحمق نفسه إِلىٰ المتكلم بغض النَّظر عن مَدَىٰ التباين بَيْنَهما والفرق في المستوى العقلي والمعرفي والثَّقافي وغير ذٰلك.

في ثقافة المجتمع المتخلف تنهار القيم وتنقلب الموازين عَلىٰ نحو عام، وتنعدم آليات التفكير السليم ومنها عَلىٰ سبيل مثل هٰذه الحال التي تجعل المرء الفارغ الجاهل يقايس نفسه إِلىٰ العالم أو الفقيه أو المتحدث فيرى، وهماً، نفسه له نداً فكلما قال المتحدث قولاً قاطعه هٰذا الجاهل الغر معترضاً عليه أو مستعرضاً عليه.

ومن هٰذا القبيل ذاته ما أكثر ما تجد من يذهب إلىٰ عالم يسأله شيئاً ما فلا يعطي العالم فرصة للكلام من كثرة المقاطعة والاستعراض ليبدو الحال في صورته للمشاهد وكأن الجاهل يعطي العالم درساً ويشرح له ويُفَهِّمُه. ولا تستغرب في هٰذا الإطار ذاته أن تجد هٰذا السُّلوك ذاته من مريض تجاه الطَّبيب الذي ذهب إليه المريض طالباً منه الكشف أسباب أوجاعها وطبيعتها والعلاج لها.

وأنا وأنا وأنا

الشَّواهد والأمثلة عَلىٰ ذٰلك أكثر من كثيرة وفي مختلف الميادين والموضوعات وحَتَّىٰ الأحداث ومنها الطارئة أيضاً. لنختم بهذا المثال شبه الجمعي من وحي الرَّبيع العربي كلِّه تقريباً، وقد شاهدناه في سوريا عَلىٰ نحو خاصٍّ وعَلىٰ نحو أربك الثَّورة وحرفها عن مسارها وأدَّى وحده بأكبر نسبة من هزيمتها بعد أن انتصرت واقتربت من الحسم بنسبة تزيد عن تسعين بالمئة. لا شك في أنَّ هناك أسباب أُخرىٰ ولٰكنَّهَا كلها أقل من عشرين بالمئة مقارنة مع هٰذه الأنا المنتفخة في تجلِّي ما سميناه التفكير الخطي. وهٰذا مقال مقتضب كتبته في ٨ تشرين الأول ٢٠١٢م تحذيراً وتعليقاً عَلىٰ مأساة الثَّورة السُّورية وما يهدِّدها بسبب هٰذا السُّلوك المدمِّر، أعيده كما هو تماماً، وهو منشور في كتابي لوحات من ألم الثورة الذي صدر في عام ٢٠١٤م:

بعيداً عن الصَّمت

بعيداً عن أنواع المجاملة

فإنَّ عبارة: سجل اسمِّي (وأنا بيمشي حالي...)... هي كبرى مآسي شعبنا وثورتنا معاً.

منذ بدايات الثَّورة تداعىٰ أو دَعَىٰ نفرٌ من السُّوريين لتشكيل لجنة حكماء للثَّورة (علىٰ غرار لجنة حكماء الثورة في مصر)...

الخطوة مباركة، ومهمة...

ولٰكنَّ الذي جرىٰ أنَّ:

القرد نط وقال: سجل اسمي أنا يجب أن أكون في اللجنة...

والدَّهان رمىٰ (سطل . دلو) الدهان وقال: سجلوا اسمي أنا أعرف ماذا يجب أن يكون...

(والبوطنجي) رمىٰ (الكريك . الرفش) ولبس كرافة وقال: أين دوري؟...

وظهرت تسريبات لجنة حكماء مثل البطاطا المشويَّة علىٰ القداحة...

وطبعاً، كلما تشكَّل مجلسٌ باسم الثَّورة يحدث التهريج نفسه والمسخرة ذاتها، وليس هٰذا وحسب.

والأكثر هزلية وتهريجاً ومأساوية في الوقت ذاته أنَّ هٰذه النكرات من الجاهلين والأسقاط هي قوام مختلف مؤسَّسات الثورة السِّياسيَّة والعسكريَّة والإغاثيَّة والطبيَّة وغير ذٰلك... والكفاءات الحقيقية هي الاستثناء في هٰذه المؤسَّسات.

بل هناك أناسٌ برزت لسبب أو لآخر ما عاد حملها رأسها وما عادت تقبل إلا بمنصب ما يعادل وزير أو أعلىٰ...

يا ترىٰ هل هناك مشكلة أم عاديٌّ ما يحدث؟؟؟

يقولون: هٰذا عادي، شعبٌ كلُّه زعماء، أصلاً ما لا يوجد عندنا هو الشَّعب، عندنا زعماء فقط، ولذٰلك لا أحد يرىٰ حاله إلا علىٰ أنَّهُ أهمُّ من طلعت عليه الشَّمس وغربت، وبل ولا يرى غير حاله أبداً... لا يرىٰ أحداً وراءه

ولا قدامه... إمَّا أنَّهُ مطمش أو عيونه ليزريَّةٌ خارقةٌ حارقةٌ لا تعرف الحدود ولا الاتجاه المعاكس.

هٰذا صحيح بمعنى من المعاني، ولٰكنَّ الأساس هو العقليَّة عقليَّة المجتمع المتخلف التي هي عقليَّة جمعيَّة من جهة وعقليَّة من جهة ثانية.

ثار الشعب وعياً بما حاق به من ظلم وأذى وضرر، نعم هٰذه حقيقة، ولٰكنَّهُ لم ينتظم تحت قيادة واحدة يلتزم به لأنّ وعيه الأخلاقي ووعيه السِّياسي ظلَّ كما هو متخلِّفاً عاجزاً عن إدراك الموقف، وتآزر ذٰلك مع انفلات المجتمع من الضَّوابط والسُّلطة فتجلت أخلاق التَّخلُّف بكلِّ صورها في ممارسات الشَّعب الثَّائر الذي دمر انتصاراته بحماقاته.

ما حدث بعد انتصار الثورة المصرية خاصة والليبية واليمنية لا يختلف عما حدث في سوريا من جهة المبدأ وإن اختلفت أشكال السلوك وأنماطه.

عَلىٰ أي حالٍ، هي عينات من الشواهد لا أكثر وتفاصيلها أمر آخر ليس يعنينا هنا.

سلبية المبدع
أم سلبية المستوعب؟

لهذا الفصل في الأصل مقالان أولهما بعنوان المثقف العربي والمجتمع العربي كتب ونشر في ٩/ ١٢/ ٢٠١٣م، والثاني بعنوان سلبية المبدع أم سلبية المستوعب وقد كتب ونشر في ١٢/ ١٢/ ٢٠١٥م، وأعيد نشره أكثر من مرة في مواقع التواصل الاجتماعي.

مثل العادة، الأكثرون سيحكمون علىٰ المقال من خلال العنوان ويفيضون في التَّعليق والنَّقد والسُّؤال والاستفسار، وفي حين أنَّ القليل من هٰؤلاء قد يقرأ بضع سطور يلتقطُ منها فكرةً ستكون سطحيَّة بالضَّرورة وغير معبرة ويبدأ بإنشاء الاعتراضات والاحتجاجات... فإنَّ أكثريَّة الأكثريَّة لن تقرأ حَتَّىٰ هٰذه السُّطور التَّمهيديَّة... ومع ذٰلكَ سيبيضون التَّعليقات التي تدعو إلىٰ الاشمئزاز.

لا أقول ذٰلك تنبؤاً أبداً فقد حدث ذٰلك كثيراً مع مقالتي أنا شخصيًّا وليس معي وحدي بالتَّأكيد فقد شاهدت الكثير الكثير تعليقاً عَلىٰ مقالات آخرين وأبحاثهم، ولذلك يكون الموضوع في واد والتعليقات في واد آخر. وهٰذه سمة من سمات أخلاق التَّخلُّف؛ تخلف الأمة لأنَّهَا تكوِّن عقلية جمعية متخلفة، وفي الوقت ذاته لا يمكن أن تكون العقليَّة الفرديَّة المتخلفة في منأى عن هٰذا الغباء.

ولا أطيل في ذٰلك فقد سبقت وتكلمت فيه، وإنما من باب البيان والتَّوضيح بأنَّ ما سأتكلم عليه الآن ينطوي تحت هٰذا الباب: ما سبق وبدأته به تمهيداً، وما سيأتي من كلام.

يكاد لا يصدق المرء أبداً أن ما أن أشد دعاة الحرية والديمقراطية في عالمنا العربي قبل الربيع العربي هم اليوم أشد أعداء المناضلين من أجل الحرية والديمقراطية...

شيء مثل الكذب!!!

منـذ أوائـل الثمانينيـات وإلىٰ الآن بحثـت كثـيراً ومـراراً وتكـراراً في سـلبية المبدعين العرب، واكتشفت منذ ذٰلك الحين وكتبت أنَّ كثيراً من هٰذه القامات الفكريَّة والسِّياسيَّة والثَّقافيَّة ليست إلا هياكل جوفاء صنعتها الأنظمة، هياكل مبدعين صنعتها الأنظمة الحاكمة، يمارسون دور المبدع؛ المعارض والموالي... هي أصفار أخرجتها الأنظمة من الحاويات ونفخت فيها الشهرة وسلَّمتها قياد المؤسَّسات الثقافية والحراك الثقافي... وعندما يجدُّ الجدُّ يظهرون عَلىٰ حقيقتهم؛ فقاعات، رجال أمنٍ... ويغدو من السَّهل علينا إدراك سبب ما نظنُّه مواقف سلبيَّة للمبدعين العرب تجاه القضايا الجوهريَّة والحاسمة في حياة الأمَّة...

ولذلك بات من الواضح الآن كيف أنَّ هناك قامات فكرية عملاقة يتم تداول أقوالها عَلىٰ أنَّهَا حكم تتجاوز الأزمان في الثورة والحرية والديمقراطية ونقد الأنظمة الاستبدادية في حين أنَّهَا عناصر مخابرات، كانت تختفي عدَّة أيَّام في ليال حمراء مع الدجاج المحمر، لتعود بعد أيَّام وتروِّج أنَّهَا كانت قيد الاعتقال وقد تمَّ الإفراج عنها بمعجزةٍ إلهيَّة.

سبب تخاذلهم وعدم قيامهم بأيِّ فعلٍ أو سلوكٍ ريادي يرقى إلىٰ مستوى الحدث ومستوى مكانتهم التي تراكمت لهم عَلىٰ مدار عشرات السنين... والأمثلة والشَّواهد عَلىٰ ذٰلك كثيرة جدًّا وغير قلية أبداً في أرجاء العالم العربي.

خذ عَلىٰ سبيل المثال الفنان الكبير الشهير **حسن يوسف** الذي أعلن توبته وصار داعية ولم يعد يمثِّل إلا أدوار الصَّحابة والزُّهَّاد والعُبَّاد... وعندما انتصرت الثورة المصرية ووصل الإسلاميون إلىٰ السُّلطة من خلال الرئيس **محمد مرسي** والبرلمان الذي تمَّ حلُّه قبل نجاح **محمد مرسي** في الرئاسة فاجأنا **حسن يوسف** بأنَّهُ حَلَقَ ذقنه وصار ضدَّ الإسلام وليس ضدَّ الأخوان فقط... كيف

يمكن تفسير ذٰلك؟ من البلاهة بمكان تفسيره بأخطاء الأخوان في الحكم وليس هٰذا وقت إطالة في الشَّرح والتَّفصيل في هٰذا الموضوع فله شأن آخر ومكان آخر.

حسن يوسف واحد من الشواهد والأمثلة عن المبدعين الذي وقفوا ضد الشعوب في ثورتاهم ضد الأنظمة المستبدة، ولك في دريد لحام الذي صدع رؤوسنا ينقده السُّلطة ونقده الاستبداد وعندما ثار الشَّعب ضدَّ الاستبداد وقف مع الاستبداد وطالب بالاستعباد واتَّهَمَ الشَّعب بالخيانة ووصفه بالحثالة... ولا أعدد في الأمثلة فهي أكثر من أن تحصى حقيقة.

هي إذن، في حقيقة الأمر، ليست مواقف سلبيَّة، هي مواقفهم الحقيقيَّة؛ مواقفهم الوظيفية، أي المواقف التي تمليها عليهم حقائقهم المهنية، وهي مواقف معظم من يبدون في واجهة المشهد الثَّقافي والإبداعي. قليلٌ ممن هم في واجهة المشهد مبدعون أصلاء بإبداعهم ومواقفهم. وأكثر الأصلاء أمثالهم مغيَّبون عن واجهة المشهد، مهمَّشون...

حقيقة أنَّ المبدعين هم مثلٌ عليا وقدوة في مجتمعاتهم وعند البشر عامة، هي حقيقةٌ تاريخيَّةٌ قديمةٌ وليست جديدةً. ولقد أدركت الأنظمة العربيَّة هٰذه الحقيقة، وكونها بالمطلق أنظمة وظيفيَّة وضعها المستعمر وهيئ لها السُّلطة من أجل قمع الشُّعوب ومحاربتها وتحطيم تطلُّعاتها في الوحدة والتَّقدُّم والنُّمو الاقتصادي والحضاري فقد عملت هٰذه الأنظمة منذ الاستقلال عن الاستعمار عَلىٰ حرق المثل العليا وتحطيمها وإفقادها القدرة عَلىٰ تمثيل المجتمع، وإفقاد المجتمع الثَّقة فيها. ولذلك سارت الجموع خلف الأقوى، خلف من يخيف، خلف من يقدِّم الرَّغيف ولو أدَّى إلىٰ هلاكها، ولم تستمع للمبدعين، ولا إلىٰ

المثقفين... وهٰذا السلوك ذاته أيضاً سلوك العوام هو ضرب من ضروب أخلاق التَّخلُّف التي تقوم عَلىٰ تخوين الأمين وتكذيب الصَّادق والعكس صحيح؛ أعني تصديق الكاذب وتأمين الخائن... وهٰكَذا.

ولكن بطبيعة ويقيناً من غير الممكن القول إنَّ المثقفين والمبدعين كلهم كَذٰلكَ أي صنيعة السلطة ورجالاتها. لقد وجدنا كثيراً من المبدعين الذين غامروا وضحُّوا ووقفوا في الصُّفوف الأولى مع شعوبهم ضد أنظمتهم المستبدة والفاسدة منذ مطلع الاستقلال، ناهيك عن مقاومة الاستعمار، وحَتَّىٰ الآن، والآن الآن في الربيع العربي في سوريا ومصر واليمن والعراق... وكثيرٌ منهم قامات سامقة ورائدة في القراءة والتَّحليل والإبداع... وقد أشرت قبل قليل وفي غير مكان إِلىٰ السلطات العربية قامت بتهميش المبدعين الحقيقيين وحجب الأضواء عنهم ناهيك عمَّن تمَّ تهجيرهم ليعشوا منفى الغربة والممارسة نفسها في ظلِّ أنظمة عربيةٍ أُخرىٰ، أو التَّهميش في العالم الغربي لتباين الأهداف والثقافات ولغات الإبداع.

إنَّ سلبيَّة قاماتٍ كبيرةٍ في مواقفها وسلوكها أمرٌ استدعى النَّظر في الأسباب وقد وجدنا من حفر في الأساسات وكشف عن الأسباب.

ولٰكن مهما كانت الأسباب فإنَّ ثَمَّةَ قضايا كبرى لا تسمح بقبول التبريرات أبداً. التبريرات تكون في القضايا والأحداث الصَّغيرة والعادية والعابرة... أمَّا في القضايا الحاسمة والمصيرية فلا توجد منطقة وسطى، ولا يوجد حياد... أما الوقوف في وجه تيار الحق الجارف، أقول تيار الحق الجارف وليس التيار الجارف، فهو موقف مسؤول لا يمكن أن يتم تمريره بسهولة.

عَلىٰ أيِّ حالٍ، الواقع والسياق يقتضي تأكيد حقيقةً لا يمكن تجاهلها إلا من أعشى أعمى بصيرة وهي أنَّ المبدع والمثقف، وأعني الحقيقي الأصيل بالضرورة، لم يكن سلبيًّا بالمعنى الذي يتمُّ الترويج له. لم يكن عدميًّا. هناك مواقف كبرى من كبار وعددهم غير قليل.

لماذا لم تظهر هذه المواقف؟

لماذا لم تفعل هذه المواقف؟

لماذا لم يظهر أثرها؟

بل لماذا لم تظهر المواقف ذاتها كما يوحي بعضهم؟

إنَّ عجز المبدعين عن القيام بدورهم بكلِّ ما تحمله كلمة دورهم من دلالات وأبعادٍ ومعانٍ... لا يرتدُّ فقط إلىٰ المبدع كما أشرت قبل قليل، فما أظنُّ إلا أنَّ المبدع أي مبدع لا يترك وسيلة إيصال الرسالة... ولٰكنَّ صندوق البريد مفقود، لا يريد أن ينفتح، لا يتلقى الرسائل... استخدموا من التعابير ما شئتم لوصف حالة الطَّلاق بَيْنَ المبدع والناس.

ولٰكنَّ كلَّ هٰذه الأوصاف لا تكفي لإيصال حقيقة أنَّ الجمهور، الناس، الشَّعب... عاجزٌ عن التَّفاعل أيِّ تفاعل مع النشاط الإبداعي الخاص بالمرحلة... عاجزين عن الإصغاء والتلبية... عاجزين عن تجاوز الوجع الراهن، اللحظة الراهنة والنظر إلىٰ الأمام أبعد من أنوفهم. هم يحكمون بما يرون لا بما يعقلون، يحكمون بما يفرض عليهم لا بما يجب أن يفكروا فيه، ينقادون لمن يضحك لهم أو عليهم ويهربون ممن يسلط أعينهم عَلىٰ الحقيقة فكيف بمن يعنِّفهم عَلىٰ أخطائهم أو تقصيرهم؟!

المبدع ليس ساحراً يسلبُ النَّاس عقولها. المبدع قائد متميِّز وليس قائداً عاديًّا، ولٰكن إن لم تكن أمامه أرضية مناسبة فإنَّهُ لا يستطيع أن يفعل شيئاً. ومن يفوق **علي بن أبي طالب** علماً وحكمة في زمنه عَلىٰ الأقل، وقد قال فيه عليه الصلاة والسلام: «أَنَا مَدِيْنَةُ العِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا». وكان من الرجولة والفروسيَّة من كان. ومع ذٰلك لم يستطع أن يفعل شيئاً من شعب لا يستجيب، حَتَّىٰ قال: «ولٰكن لا رأي لمن لا يطاع».

وهنا قد يعترض متفلسف في الحضارة وأخلاق الحضارة التي عليها بناؤنا: ألم يكن المسلمون متحضِّرون في أيام **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه؟

الحقيقة لا، لم يكونوا كَذٰلكَ في زمانه وإنَّمَا كانوا في أوائل طريق بناء الوعي الحضاري والحضارة. نعم كانت أخلاقهم أخلاق الإسلام ولٰكنَّهَا حَتَّىٰ ذٰلك الزَّمان كانت أخلاقاً فرديَّة ولم تكن قد ترسَّخت بوصفها عقليَّة أمَّةٍ، أي عقليَّةً جمعيَّةً.

وما من الضَّروري الإشارة إليه هنا، وما أظنني إلا أشرت إليه من قبل غير مرَّةٍ في هٰذا السِّياق، أنَّ الأخلاق الجَمعيَّة، العقليَّة الجَمعيَّة، لها سلطة عَلىٰ الأفراد تفوق العقلية الفردية، والأخلاق الشخصية أو الفردية. فإذا جدَّ الجدُّ تجد الفرد منساقاً وراء الجماعة في سلوكها وأخلاقها التي لا يتفق معها أو يعترض عليها؛ حسبك عَلىٰ ذٰلك شاهداً مثلا الإنسان الذي ينظِّر مطولا في النظافة، ويمارسها في بيته وسلوكه الفردي عَلىٰ أحس ما يكون ولٰكنَّهُ في ممارسته الجمعية لها لا يختلف عن سائر العقلية الجمعية أو الأخلاق الجمعية فيلقي عقب السِّيجارة في الطَّريق ببرود وراحة ضمير، دعم من عقب السيجارة يلقى أي ورقة أو منديل ورقي عَلىٰ قارعة الطَّريق بضميرٍ مرتاحٍ ومن ودن أن يفكِّر في ذٰلك،

لأنَّ هٰذا منسجم مع الأخلاق الجمعيَّة والعقليَّة الجمعيَّة. ومثل ذٰلك أمثلة كثيرة يندُّ المجال عن حصرها، ولا نهدف إلىٰ حصرها ولا ضبطها ولا إحصاءها أصلاً في هٰذا المقال.

إذن لم تعد المسألة مسألة أنَّ المثقف العربي أثبت أَنَّهُ أعجز عن أن يكون قدوة وأَنَّهُ غير جدير أبداً بأن يكون قدوة... كما يرى الكثيرون ويقررون من غير علم ولا فهم.

ولم تعد المسألة مسألة سلبية أكثر المثقفين العرب ووقفوهم ضد الشعوب في المسائل الحاسمة والمصيرية، وتفضيلهم الأنظمة المستبدة عَلىٰ الوقوف مع الحق وقول كلمة الحق والدفاع عن الحقيقة.

المسألة في مجملها تتلخص في جملة واحدة: إنها أخلاق التخلف. في المجتمع المتخلف تنعدم الفاعليات الإيجابية. ونقطة انتهى. ومن هٰذا الباب وهب من غيره فإنَّ الحقيقة هنا تتجلى في ثلاث نقاط أو مسائل:

المسألة الأولى هي أنَّ سلبية المثقفين والمبدعين تعبير خاطئ لأَنَّهُ يحكم عَلىٰ سلبية منتفعي السلطة أو النظام الذين تم تظهيرهم وتعويمهم عَلىٰ أنهم مبدعون فيما هم في الحقيقة طبول جوفاء صنعتهم الأنظمة ليكونوا بدلاً عن المبدعين والمثقفين الحقيقيين تستخدمهم السلطة كيفما تشاء ومَتَىٰ تشاء ولك في هٰذا الشأن أن تضع كل المبدعين في الفكر والفلسفة والأدب والتمثيل والرسم والطرب من حسن يوسف إلىٰ عادل إمام وإلهام شاهين ومصطفى بكري وغيرهم في مصر إلىٰ دريد لحام وطيب تزيني وزهير رمضان وغيرهم في سوريا... وهلم جرًّا إلىٰ سائر العالم العربي. فهٰؤلاء ما هم إلا طبول جوفاء أجراء لدى مخابرات الأنظمة حَتَّىٰ وإن تحلى بعضهم بالموهبة الإبداعية في مجاله فإنها تصبح موهبة

موضوعها وهدفها خدمة الأنظمة مقابل أجور مادية أو معنوية. ومن العار اعتبار أمثال هٰؤلاء من المثقفين أو المبدعين. مع كون بعضهم ممتلكاً مو هبة وقدرة إبداعية فعلاً، ولٰكنَّهُم قلة منهم بطبيعة الحال.

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن وضعية الأمة من تخلف وتحضر هي التي تجعل من ظاهرة استزلام المبدعين وتسخريهم لخدمة مخابرات الأنظمة في قمع الشعوب والوقوف ضدها مسألة منتشرة أو غير منتشرة. في الأمة المتخلفة يكون هٰؤلاء الغثاء هم أكثرية وهم الواجهة... وهم المثل العليا في المجتمع، لأنَّ الإعلام بيدهم وبيد السلطة التي يشتغلون لها.

المسألة الثانية المبدع الحقيقي والأصيل موجود، ولٰكنَّهُ يتم التعتيم عليه وتغييبه وتهميشه وحَتَّىٰ محاربته ومحاصرته ومنع ظهوره وانتشاره حَتَّىٰ لا يكون فاعلاً ولا قادراً عَلىٰ الفعل ولا عَلىٰ التأثير. وجدير بالذكر هنا أنَّ ثَمَّةَ فاشلين يتوهمون أَنَّهُم مبدعون أصلاء تتم محاربتهم وتهميشهم، ولكنهم غالبا من غير المنافقين للسلطة ولا المطبلين لها، لأنهم لو كانوا من المطبلين والمنافقين للسلطة وأبواقها لرُبَّما غالباً انتشروا واشتهروا عَلىٰ ما هم عليه من خواء وفراغ.

عَلىٰ أي حال، المبدع الحقيقي الأصيل الذي لا يبيع ضميره في أي زمان وأي مكان وأي مجتمع وأي مستوى وعي حضاري لا يمكن إلا أن يقوم بدوره الذي يستطيعه والذي يقدر عليه والذي ينجلي عن تقديره والذي ينسجم مع فكره...

أي قد يخطئ وقد يصيب، الأمر مرتهن بمهارته وقدرته وكفاءته وثقافته، ولٰكنَّهُ في كل الأحوال: أقدر حكماً، وأحكم رأياً، وأنجع فعلاً من العوام جملة وتفصيلاً.

كثيرون يعرفون قصة السفينة التي أعيت الخبراء لتصليحها ولم يفلحوا حَتَّىٰ انتهى إلىٰ القبطان أو صاحب السفينة عن رجل عجوز لديه خبرة كبيرة في تصليح محركات السفن، فاستدعاه.

دار العجوز حول محرك السفينة دورتين، ثُمَّ أخرج مطرقة من حقيبته وطرق طرقتين في مكان معين، ثُمَّ قال افعلوا كذا. وفعلوا كذا وانتهت المشكلة.

وعندما سأله صاحب السفينة عن أجرته قال: خمسة آلاف دولار.

جن جنون صاحب السفينة من هٰذا المبلغ الكبير، فقال للعجوز: من فضلك أريد تفاصيل كشف الحساب، لأعرف عَلىٰ ماذا تريد خمسة آلاف دولار... كل ما فعلته أنَّك طرقت بالمطرقة طرقتين.

فأعطاه العجوز فاتورة كتب فيها: أجرة الطرق بالمطرقة دولار واحد. وأربعة آلاف وتسمئة وتسع وتسعون دولاراً أجرة خبرة معرفة كيف وأين تطرق وكيف تفسر ما سمعت.

هٰذا هو دور المثقف في كل الأوقات وخاصة في الأزمات.

المسألة الثالثة: فأين المجتمع من المبدع؟

في المجتمع المتحضر وفي كل الأزمان المجتمع يتبع المبدع في العموم لا في المطلق، كل مبدع مثل أعلى وقدوة وما يفعله ويقوله دليل تهتدي به الناس وبه تقتدي.

أمَّا المجتمع المتخلِّف فإنَّ قيمه مهترئة، وأخلاقه منهارة، وموازينه مقلوبة. وقد أبنت ذٰلك من قبل في هٰذا الفصل وارتباطه بتفاعل المجتمع أفراداً وجماعات مع المبدع والمثقف، وفي ذٰلك تفاصيل كثيرة وطويلة منها ما أبنت عنها في فصول هٰذا الكتاب.

ولٰكنَّ دعوني أستعرض هٰذه المشكلة من جديد من خلال شواهد يدركها اليوم كل من يعيش في هٰذا الزمن من أبناء المجتمع العربي:

إنَّ المجتمع العربيَّ الرَّاهن الذي تحركه الرَّاقصات والمسلسلات ومباريات كرة القدم أكثر ألف مرَّةٍ مما تحرِّكه دماء الشُّهداء المنسفحة عَلىٰ ربوع سوريا هو شعب لا يمتلك من العقل ما يكفي للتفكير السَّليم، شعب تحكمه الغرائز البهيميَّة أكثر مما يحكمه الوجدان الأخلاقي أو الإنساني... وفي أسوأ الاحتمالات فإنَّهُ سيذوق عاجلاً أو آجلا من الكأس الذي يتجرعه السوريون اليوم ولن يجد من يشعر به لأَنَّهُ لم يشعر بأهله.

كيف يمكن أن أثق في أنَّ مثل هٰذا الشَّعب العربيِّ الرَّاهن يمكن أن يكون له أيُّ مستقبلٍ مشرقٍ وهو يرى أهله هو لا أهل غيره يذبحون ويحرقون ويشرَّدون في العراء تحت المطر والبرد والرياح... وهو بضميره المرتاح يسوح مع السياح، ويلهو ويعلب وتأخذه الراقصة ومبارة كرة القدم أكثر بألف مرة مما يمكن أن تشغل باله معاناة أهله هؤلاء؟؟؟؟

هزلت، كلمة قليلة عَلىٰ مثل هٰذا الحال.

كثيرون قالوا إِنَّهُ ليس من المبالغة أبداً القول: لقد أثبت الشَّعب العربي حَتَّىٰ الآن أَنَّهُ غير جدير بالديمقراطية والحرية في ظلِّ وعيه الاجتماعي الرَّاهن. ولست أختلف مع ذٰلك.

وإلا فماذا يمكن أن نقول عن الشَّعب الذي ينقلب عَلىٰ ثورته التي انتصرت وجلبت العزة والكرامة وينصر انقلاباً عسكريًّا عليها كي يعود إِلىٰ حذاء الاستبداد؟!

وماذا يمكن أن نقول عن الشَّعب الذي تنهزم ثورته بسبب أنانيته وهي قاب قوسين أو أدنى من النصر؟!

إننا بما نحن أمَّة متخلفة فإننا شعب نهوى أن ننخدع.ونُفتن بمن يكذب علينا ويضللنا، ونسر ممن يسرقنا... ونحارب من ينصرنا ونعتدي عَلىٰ من ينتصر لنا. ونلقي عَلىٰ غيرنا أسباب قهرنا وإخفاقنا. نحن من يخفق، وننفق لنخفق، وإن انتصرنا نجهز عَلىٰ النصر لنخنقه ونختنق، وعلق هزيمتنا عَلىٰ أكتاف غيرنا.

لا شك في أن هناك خصوم وأعداء ولٰكنَّ الجاهل ينال من نفسه ما يعجز عنه عدوه. وقالوا أيضاً: إياك وصحبة الجاهل فإنَّهُ يريد أن ينفعك فيضرك.

سيسأل من يسأل ويعترض من يعترض: وما العمل؟

ارجع إلىٰ بداية المقال واقرأه من جديد.

أخلاق التخلف

الشعب المتخلف
شعب يعيد إنتاج عبوديته

هٰذا الفصل في الأصل مقالان أولهما بعنوان وهم جلد الذات، كتب ونشر في ٢٥/ ١١/ ٢٠١٣م وأكثر من مرة منذ ذاك الحين، والثاني بعنوان شعب يعيد إنتاج عبودتيه، وقد كتب ونشر في ١٣/ ٢/ ٢٠١٤م، وأعيد نشره أكثر من مرة أيضا.

إطار موضوعنا العام هو أخلاق
التخلـف أو أخـلاق الأمـة جماعـات
وأفـراداً عنـدما تكـون الأمـة في حالـة
التَّخلُّف والتَّردِّي الحضاري.

ومن الضَّروري الإشارة هنا، وقد سبق ذٰلك، إلىٰ أنَّ عبارة أخلاق التخلف كما هي تعني أخلاق الأمة وعقلية الأمة وهي في حالة التَّخلُّف فإنَّهَا بمعنى من المعاني تنصبُّ عَلىٰ السُّلوك الأخلاقي الفردي أو الجمعي مهما كانت صفة الفرد أو الأمة ووضعية أيٍّ منهما عَلىٰ سلم الحضارة والرقي.

أعني بذلك أَنَّهُ يمكن إلىٰ حدٍّ كبير المساواة بَيْنَ أخلاق التخلف والسلوك الأخلاقي المتخلِّف.

أعـني بـذٰلك مـن جديـد أنَّ أخـلاق التَّخلُّـف هـي السـلوكات الأخلاقيَّـة المتخلِّفة بغضِّ النظر عن فاعلها ومرتبته وموضعه ومكانته. ولا أطيل في ذٰلك فقد سبق التَّفصيل فيه. وإنَّما أودُّ هنا أن أعرض لوجه من أوجه أخلاق التَّخلُّف في مجتمعنا العربي والإسلامي عامة، وليست أمَّتنا وحدها المتخلِّفة اليوم، ثَمَّةَ الكثير مثلنا، ولٰكنَّ الذي يعنيني أكثر ما يعنيني هو أمتي التي أنتمي إليها والتي لا أرتضي عنها بديلاً.

لا أريد الدخول في فلسفة الحضارة وصعود الأمم وانهيارها وعلاقة ذٰلك بالأخلاق والقيم فَذٰلكَ موضوع طويل ومختلف وليس من شأننا الآن، لأن موضوعي هو أخلاق التَّخلُّف، سمات أخلاق التخلف، تمثلات وتجليات أخلاق التخلف... بوصف هٰذه الأخلاق من خصائص المجتمع المتخلف من جهة،

وبوصفها نتاج التَّخلُّف من جهة ثانية، وفاعلية وتأثير هٰذه الأخلاق في المجتمع والأمة من جهة ثالثة.

الجهتان الأولى والثانية تم تناولهما غير مرة في فصول هٰذا الكتاب، وحَتَّىٰ الجهة الثالثة تم التَّعرض لها والتَّعريض بها غير مرَّة في أكثر من موضع، وأركِّز الآن عَلىٰ وجه من أوجه الجهة الثالثة، في الآتي، وللبيان فما سيأتي هو مقال كتبته في مطالع عام ٢٠١٤م أورده كما هو، وهو أصلاً مكتوب في سياق هٰذا الكتاب منذ ذٰلك الحين، بل كل فصول الكتب مكتوبة في هٰذا السياق أصلا وفصلاً:

طالما أنَّ الشَّعب لم يزل هو فلا جديد

وقع الانفصال بَيْنَ سوريا ومصر

وبعد الانفصال خطب **عبد الناصر** قائلاً:

أرسلت الأسطول الحربي إلىٰ سوريا ليعيد الوحدة...

فقوطع كلامه بالتَّصفيق الحاد لمدَّةٍ طويلةٍ!!!

فاضطر إلىٰ قطعه وتكملة كلامه ليقول:

إلا أنَّني أعدت الأسطول من منتصف الطَّريق لأنَّ العربي لا يقتل أخاه العربي.

فانطلق التَّصفيق بالحماسة والحدَّة ذاتها!!

ما هٰذا الشَّعب بل نواب الشَّعب الذي في دقيقة واحد يعلن تأييده الحاد والحاسم للأمر ونقيضه في الوقت ذاته لمحض أنَّهُ صدر عن الزعيم القائد...

القصة ليست وحيدة وليست مع **عبد الناصر** وحده. فبعد حرب تشرين/أكتوبر ١٩٧٣م وقف **السادات** عَلىٰ منبر مجلس الشَّعب وافتخر بانتصار حرب تشرين...

فصفَّق المجلس له بحدَّةٍ وحماسة...

وتابع فقال: وسأذهب إلىٰ إسرائيل لتوقيع اتفاقية سلام...

فصفق المجلس له بحدَّةٍ وحماسةٍ أكثر من السابق.

من يصدق هٰذا التَّناقض؟

ليست مصر وحدها أنموذجاً وشاهداً في ذٰلك، سائر دول العرب خاصَّة والمسلمين عامَّة تجد فيها مثل ذٰلك بدرجات تزيد أو تنقص. لنقف عن شاهد مماثل في المبدأ مختلف في الصورة من سوريا.

في عام ١٩٧٧م أراد **حافظ الأسد** أن يضع الجامعات تحت سلطته فوضع قانون تنظيم الجامعات الجديد وفيه ما فيه. ومما فيه ما يسمى الكتاب الجامعي الذي صدر بقانون رئاسي خاص فيما أذكر. وقانون الكتاب الجامعي هو قانون تدمير الجامعات كما كتبتُ في مقال مطول نشر في الجرائد السورية في ٢٠٠٤م تحت عنوان: الكتاب الجامعي مشكلة تنتظر الحل؛ مقبرة التعليم العالي متى تردم؟. قلت ذٰلك ونشرته فيما اعتبره الكل مغامرة بالحياة.

المهم في الأمر، عندما صدر القانون الفريد الوحيد في العالم الذي انفردت به الجامعات السُّوريَّة دون سائر جامعات العالم، بما يوحي وحده بتفاهة القانون ونشوزه. ومع ذٰلك اعتبره الشَّعب والأساتذة عطاء من القائد المفدى، مكرمة تاريخية... كان ذٰلك مقبولاً في البدايات ولٰكن بعد سنوات قليلة تكشفت مساوئ هٰذا الكتاب والقانون، ولم يجرء أحد عَلىٰ الاعتراض وطلب الإلغاء أو حَتَّىٰ التَّعديل، الكل يقول: هٰذا عطاء من القائد المفدى لا يجوز إلغاؤه.

لا أطيل في تفاصيل مساوئ الكتاب الجامعي هٰذا ومَدَىٰ المعاناة من محاولة تعديله أو إلغائه، حَتَّىٰ بعد وفاة حافظ الأسد لم يتغير في الأمر شيء

وصار القول: عطاء من القائد الخالد... حَتَّىٰ كتبت مقالي الصارخ ونشرته في عام ٢٠٠٤م، وانفتح باب الجرأة عَلىٰ الطعن في هٰذا القانون وتم تعديله وتحقيق بعض التوازن وتجاوز بعض المساوئ.

صحيحٌ أنَّ للطُّغاة سطوة، ولٰكن ليس إلى هٰذا الحد. إنَّ أحداً من الطُّغاة لم يحظ بمثل هٰذا الشَّعب من قبل ولا أظنُّ من بعد. قالوا: «شعوب لا تجيد إلا التصفيق!!!»، ولٰكن حَتَّى هٰذا التَّعبير أقل قدرة عَلىٰ وصف هٰذه الشُّعوب.

الحقيقة الأكيدة هي أن شعباً بهٰذا الطَّبع شعب ممسوح البصمات، لا بصمة له إطلاقاً لا نفسيَّة ولا ماديَّة... حَتَّىٰ الآلة الميكانيكية لا يمكنها تقبل أمرين متناقضين، وإذا فُرِضَ عليها ذٰلكَ انفرط محركها وصار بحاجة لإعادة تركيب من جديد، لأنَّهُ لا يستقيم معها أبداً أن تقوم بفعلين متناقضين في واحد؛ الأمر يشبه إلىٰ كبير أنك تسير بالسيارة إلىٰ الأمام وفيما أنت تسير الأمام تضع ناقل الحركة عَلىٰ مسنَّن الرُّجوع إلىٰ الخلف!!! ناقل الحركة ذاته وهو بلا روح ولا حياة ولا حس لن يقبل ذٰلك وإذا فعلت ذٰلك عنوة انفرط المحرك.

الحقيقة الأكيدة هي أنَّ شعباً بهٰذا الطَّبع لا يمكن أبداً أن ينتج حضارة ولا دولة ولا ثورة... لا يمكن أن ينتج أكثر من إعادة إنتاج عبوديته كلما اهترأت أو تعرضت للشَّمس أو لامستها أنسام الحرية أو حَتَّىٰ سمعت من بعيد أنغام الحرية...

ولٰذلك لا تستغربوا أنَّ الرَّبيع العربي غدا هراء. هو حق وضرورة وواجب... ولٰكنَّهُ كان فورة نَفَرٍ حُرٍّ قليل أو كثير خسروا حيواتهم في سبيل الشعب الذي لم يستطع الصَّبر عَلىٰ روائح الحرية فانقلب عليها. الرَّبيع العربي لم يُسرق من قبل أحدٍ، الرَّبيع العربيُّ لم يجهض من قبل أحدٍ، الرَّبيع العربي لم تتآمر

عليه أمريكا ولا إسرائيل... وإنَّمَا الشَّعب العربي الذي لا يجيد إلا قبول إملاءات الطُّغاة مهما تناقضت هو الذي لم يستطع أن يعيش الحرية والكرامة... ولهٰذا لم يتعاطف أحدٌ مع السوريين مثلاً، بل اتَّهَموا السوريين بتخريب بلدهم، وعاملوهم بازدراء لأنَّهَم ثاروا عَلىٰ نظام (المقاومة والممانعة)... وأنا لا أتكلم أبداً عن الأنظمة... أتكلم عن الشُّعوب العربيَّة من دول الجوار إلىٰ أقصى المغرب العربي.

إن كان هٰذا موقف الشعوب العربية عن قناعة أو تقليداً لأنظمتها واقتداء بها فالأمران سيان لا فرق.

وهٰذا ليس وهماً، ولا اتهاماً باطلاً، وليس جلداً للذَّات.

ولا تحدثني عن الاستثناء. الاستثناء موجود لا يمكن نكرانه، ولا يمكن نكران المؤامرة عَلىٰ الربيع العربي، حَتَّىٰ يبرد غليان هواة الاصطياد في الماء العكر. ولٰكن لا ينال العدوُّ من جاهل ما ينال الجاهل من نفسه.

منذ أكثر من ثلث قرن والكثير من العقول المسطحة تتهمنا بجلد الذَّات كلَّما انتقدنا عقليَّة أمَّتِنَا المتخلِّفة وخيانتها لذاتها.

ترى هل انتقادنا لأمتنا هو جلدٌ للذات؟

منذ أكثر من عشرين سنة والأمَّة تتعرَّض لهجمةٍ تلو هجمةٍ وتحطيمٍ تلو تحطيمٍ، وكلَّ مرَّةٍ أشد من سابقتها وأخطر، وها هي الأمَّة عَلىٰ حافة هاوية الانهيار الفظيع... ومع ذٰلكَ لم تتحرَّك الأمَّة إلا لترقص طرباً عَلىٰ أغاني الألم والقهر.

عندما كنا تحت سلطة الاحتلال منا نثور، كنا نقاوم...

وعندما انجلى الاستعمار كنا نغضب ويعم غضبنا الأرجاء عندما يحدث حدث ينال من كرامة الأمة من قبل الخارج أو الداخل... كنا نتظاهر، كنا نقطع الشوارع، كنا نضرب عن العمل...

ومنذ جاء الحكام الديمقراطيون القوميون بدءا **بجمال عبد الناصر** إلىٰ اليوم بفعل ما فعل هٰؤلاء الغشمة الظلمة ماتت النَّخوة، وانعدمت الشَّهامة، ولا ندري أين ذهبت الكرامة... ولم نعد نفكر في حَتَّىٰ الغضب... يمر الحدث الجلل الذي يطعن في كرامة الأمة ودينها وعقيدتها ومقدساتها ولا يفعل الشعب العربي ولا المسلم شيئاً... وقليل يثور عَلىٰ الفيس بوك أو التويتر...

لا تتخيلوا أبدا أنَّ ما ينتظر الأمة شيءٌ سهْل أو قليلٌ...

إنَّ الأمة عَلىٰ حافة الانهيار التَّام...

أكرِّر أكرر: الأمَّة عَلىٰ حافة الانهيار التَّام. وكلُّ البوادر لذَلك واضحةٌ جليَّةٌ.

فمتى تتحرَّك الأمَّة؟

متى تكسر القمم وتخرج؟

إذا لم تخرجها هٰذه الزَّلازل الحاصلة في هٰذه الأيام فإنَّها لن تخرج أبداً أبداً ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد .

الوقوف مع الباطل على علم

كتب لهذا الفصل ونشر أول مرة في ١٩/ ٨/ ٢٠١٤م على صفحتي في الفيس بوك وبعضمواقع التواصل الاجتماعي.

أبدأ بمثل أمريكي إذا كان للأمريكان أمثال، جاء عَلىٰ لسان السيناتور **جون ماكين** في آب / أغسطس عام ٢٠١٣م عندما كان في مصر وسأله الصحافيون إن يصر عَلىٰ تسميه ما قام به الجنرال **عبد الفتاح السيسي** انقلاباً فقال:

. «إذا كانت تقاقي مثل البطة، وتمشي مشية البطة فهي بطة».

هٰذا كلام جميل جدُّ جميلٍ، أمَّا أن تقول: إذا كانت تقاقي مثل البطة، وتمشي مشية البطة فهي عنزة. فهٰذا شيء غريب، وأمر مريب، وسفه عجيب!!

عندما يتجاوز الموضوع موضوع غباء التَّفكير الخطِّي فإنَّهُ سيكون افتراء متعمَّداً. أي: من يقيس طول الموزة وطول العمر بمسطرة واحدة، ويقيس ارتفاع التَّنورة وارتفاع الماء في النَّهر بمسطرة واحدة... فإنَّهُ إذا لم يكن يفعل ذٰلك من باب الغباء فإنَّهُ سيكون من باب الافتراء. ومن يفتري فقد اختار الوقوف مع الباطل اختياراً إراديًّا. وليس في ذٰلك أدنى شك أبداً.

هٰذا وجه من أوجه الوقوف مع الباطل عمداً وعن سبق إصرار وتصميم. والباطل أنواع ودرجات، وأوجه الوقوف مع الباطل أنواع ودرجات. ولٰكنَّ بالمجمل الباطل باطل من أدناه إلىٰ أعلاه، والوقوف مع الباطل عمداً عَلىٰ علم كله خلق واحد من أبسط أشكاله إلىٰ أشدها.

الوقوف مع الباطل عن جهل سبق الكلام فيه غير مرة عرضاً غالباً ومع القصد أحياناً أُخرىٰ. أما الوقوف مع الباطل عمداً وعَلىٰ نحو ما نتكلم فيه الآن فقلما عرضنا له، ولذلك خصصت له هٰذه الوقفة المستقلة.

من الأوجه الأُخرىٰ للوقوف مع الباطل عمداً وعَلىٰ علم، وهي كلها متشابهة تقريباً في المبدأ، أنَّنا إذا كنَّا نتحدَّث بالدَّليل والحجة والبرهان القاطع منطقيًّا وواقعيًّا ونجد من يرفض الاقتناع... فهذا ممن افترى عمداً، وتعمد الوقوف مع الباطل عمداً وعَلىٰ علم وإصرار وتصميم. فإذا تجاوز ذٰلك إلىٰ اتهامنا بالتَّضليل فكيف يمكن وصفه؟ وكيف يمكن أن يكون الكلام المقنع؟

لا تأبهوا عندما تجدون أمثال هٰؤلاء المسوخ.

نبي الله **إبراهيم** عليه السَّلام أفحم قومه حَتَّىٰ ذهلوا من قوَّة حجَّته وبرهانه عندما حطَّم أصنامهم، لقد علموا بما أضمروا أنَّ **إبراهيم** هو من حطَّم الأصنام، فأرادوا أن يجعلوه عبرةً ولذٰلك أرادوا أن يحاجُّوه علناً أمام الجميع ليقميموا عليه حجة الاعتراف بلسانه ويحق عليه عذابهم:

{قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ(٦٠)

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ(٦١)}

ولٰكنَّ **إبراهيم** عليه السَّلام أفحمهم بل أذهلهم بإفحامهم وأسكتهم بحجته التي لا تقبل الشَّك.

{قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ(٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ(٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ(٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ(٦٥)}.

ومع ذٰلكَ كله، ماذا كان قولهم؟

انظروا إلىٰ عناد من يقف مع الباطل عامداً متعمداً: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٦٨)}.

افحموا بحجَّة لا تقبل الشَّك ولا الطَّعن ومع ذٰلك لم يقبلوا الاقتناع، وأصروا عَلىٰ معاقبة صاحب الحق. وفي زمن **إبراهيم** ذاته كان قوم **لوط** الذين قالوا علنا: {أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}.

انظروا إلىٰ الصَّراحة في الوقاحة. إنَّ الطَّاهرين، الصَّادقين... لا يجوز أن يبقوا في القرية. ينبغي أن لا يعيش في القرية إلا الفجرة العاهرين الذين لا يعرفون الحق.

إذن لا تبتئسوا. ولا يخدعنكم حشدهم من الأقاويل والأضاليل. الحقُّ واضحٌ صريحٌ. والحرام حرام ولو فعله كله الأنام. يعني لو أن البشرية كلها قالت عن الباطل إِنَّهُ هو الحق فليس ذٰلك ليجعل الباطل الحق، ولا ليجعل الحق الباطل.

ولٰكنَّ إيماننا واعتقادنا بهذه الحقيقة لا يغير من حقيقة أخلاق التَّخلف التي تجلت في هٰذه الأوجه من الوقوف مع الباطل عمداً.

قلت في تحديد أخلاق التَّخلُّف إنَّ أخلاق التَّخلُّف تقال عَلىٰ وجهين: أولهما وأشهرهما أخلاق المجتمع أو الأمة المتخلفة، وقلت في ثانيهما إِنَّهُ في الوقت ذاته توصف السلوكات الأخلاقيَّة ذاتها بالتَّخلف بغضِّ النَّظر عن صاحبها ومكانته وتحضره وعن مَدَىٰ تضره مجتمعه وأمته. ففي أي مجتمع متحضِّر تصدر سلوكات متخلِّفة عن أشخاص أو رُبَّما عن بيئات اجتماعيَّة في ظروف معينة أو تجاه أحداث معينة.

هٰذا السُّلوك في الوقوف مع الباطل في حقيقة الأمر موجود في كل زمان ومكان. وبدا ذٰلك واضحاً من سابق كلامنا. إلا أَنَّهُ شأن سائر القيم الأخلاقيَّة وتجليَّات الأخلاق سلوكيًّا يوجد أيضاً في المجتمع المتخلف أكثر من المجتمع المتحضر بالعموم. وهٰذا السلوك بما هو قيمة أخلاقيَّة بالمطلق يتجلَّى في سائر الموضوعات من دون تحديد في المجتمع المتخلِّف ومنها موضوعات العقيدة والإيمان التي مرَّ معنا قبل قليل أنموذجها الصارخ وضوحاً مع **إبراهيم** عليه السلام. هٰذا السلوك الذي سلكه الكفرة مع **إبراهيم** عليه السلام يتجلى في كل الأزمان، وكل المجتمعات؛ المتحضِّرة منها والمتخلفة. ولذلك لا مراء في أنَّ ملة الكفر واحدة، لا علاقة لها بالتَّحضُّر أو التَّخلف، ولا بالمكان.

ومع ذٰلك من المهمِّ الانتباه إليه في هٰذا الشأن أنَّ هٰذا السلوك بما هو قيمة أخلاقية لا ينحصر في سلوك أهل الكفر مع أهل الإيمان وإنَّمَا يتعداه ليطال سائر الموضوعات والمجالات في الحياة. وهنا يمكن التَّفصيل والفصل قليلاً في أنَّ هٰذا السلوك في الوقوف مع الباطل ينتشر في المجتمع المتخلف في سائر المجالات بَيْنَما في المجتمعات المتحضِّرة مرتهنٌ أساساً بأهل الكفر مع أهل الإيمان عَلىٰ العموم، ومرتهن بعقليَّة المجتمع والموضوعات التي يتعامل معها. وفي هٰذا الموضوع تفاصيل رُبَّما ليس يعنينا أمرها الآن.

من الناحية الأخلاقية أو قل الفلسفة الأخلاقية إذا شئت فإنَّ مناصرة الباطل وعياً وعمداً كما أشرنا، لا جهلاً، تتجلَّى وتكثر في المجتمع المتخلف بوصفها ضرباً من النفاق ورُبَّما في بعض الأحيان بوصفها ناجمة عن الخوف الذي تزرعه أنظمة الاستبداد وعقلية الاستبداد كما مرَّ معنا من أمثلة في غير هٰذا الموضع.

ومع ذٰلك فإنَّ كثيراً من الحالات بل أكثرية حالات مناصرة الباطل لا تجد ما يفسرها من باب الخوف، لأنها تتعدى ذٰلك وتتجاوزه، ولا يمكن أن يكون الخوف سببا لها. النفاق والمكابرة في الخطأ والتفكير الخطي هي العوامل الأكثر قدرة عَلىٰ تفسير مناصرة الباطل عَلىٰ علم. وأصر عَلىٰ علم وأستثني الجهل لأنَّها لو كانت من باب الجهل لكانت اتخذت سبلاً أُخرىٰ وكانت قابلة للتبدل والتغير مع المعرفة، وليس الأمر كَذٰلكَ.

إن العناد والمعاندة وركوب الرأس في عدم الاعتراف بالغلط هي ضرب من ضروب الوقوف مع الباطل عَلىٰ علم، مع ما قد يبدو المرء عليه أمام نفسه من أَنَّهُ عَلىٰ صواب في ذٰلك. مثل هٰؤلاء مثل الذين قال الله تَعَالىٰ فيهم في سورة الكهف: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

أخلاق التخلف وتدييك العلماء

العالم ديك والديك عام

كتب لهذا الفصل ونشر في أواخر عام ٢٠١٧م في مواقع التواصل الاجتماعي. وقد نشر الأصل على شكل مجتزءات ونصوص صغيرة ثم تم جمعها في هذا المقال.

الحقيقة أنَّي أثرت قضيَّة هٰذا المثل من جوانب متعدِّدةٍ في أكثر من مقالٍ من مقالات هٰذا الكتاب... كانت إشارات وتعريضات من هنا وهنا تبعاً لطبيعة المقال وموضوعه، ولٰكنَّ الموضوع يستحقُّ وقفةً خاصَّةً به ولو كانت سريعةً... يستحقُّ وقفةً مطوَّلةً في حقيقة الأمر، ولٰكنِّي لن أطيل، سأركز ما استطعت وأختصر.

قبل نحوٍ من ثلاثين سنة رُبَّما تنقض قليلاً تحدثت في عدة مقالات عن محاربة المبدعين من المبدعين أنفسهم بل الأصح من المحسوبين عَلىٰ أَنَّهُم مبدعين ممن تعملقوا بالوساطات أو قرارات السلطات وتسنَّموا مراكز القرار في الإشراف عَلىٰ الثقافة والفكر والإعلام. الآن أتقل إلىٰ الوجه المقابل للمبدعين وكيف يتعاملون مع المبدعين، وأعني بهم المجتمع بعمومه وفئاته من أدناها إلىٰ أعلاها، ولا أعني العوام تحديداً ولا الجهلة أبداً... أعني الجميع.

سأبدأ تلميحاً وتصريحاً بما سأختم تبياناً وتوضيحاً. الشَّيخ **محمد العريفي** من كبار الشيوخ والعلماء الذين تسألهم الناس من مختلف أرجاء العالم، وحَتَّىٰ يأتون إليه من بلدان مختلفة لسؤاله والاستنارة برأيه وعلمه. مرَّةً كان عند أمِّه وقد كانت مريضةً، وعندما أراد الخروج سألها إن كانت تحتاج منه شيئاً. فقالت له:

. أحضر لي شيخاً يقرأ عليَّ الرقية الشَّرعيَّة.

فضحك **العريفي** وقال لها:

. وأنا ماذا أفعل؟

فقالت له:

. أنت ابني.

لأنَّهُ ابنها ليست مقتنعةً به. ابنها وليس ابن الجيران، ومع ذٰلكَ وعلىٰ ما هو عليه من علمٍ ومكانةٍ ليست مقتنعة به.

هل هي وحدها كذٰلكَ؟

تشيع في الثَّقافة العربيَّة، وربَّما الشَّرقيَّة فالدَّلائل توحي بذٰلكَ نوعاً ما، قولهم: «أزهد الناس بالعالم أهله وجيرانه»، ومن مثله قولهم الشَّائع: «مزمار الحي لا يطرب». ومثله أيضاً قولهم: «لا كرامة لنبي بَيْنَ أهله». وفي المقابل من ذٰلكَ يشيع قولهم: «كلُّ ديكٍ علىٰ مزبلته صيَّاح»، ولهٰذا ربَّما أصله أو أضيف إليه قولهم: «كلُّ كلبٍ ببابه نبَّاح وكلُّ ديكٍ علىٰ مزبلته صياح». ولن يخلو الأمر من مثله من الأمثال علىٰ أيِّ حال.

وينتصب السُّؤال: أليس من تناقض بَيْنَ المثلين؛ مثل عدم احترام العالم بَيْنَ أهله وحيِّه، ومثل سيادة الديك وعلو صوته في حيِّه، أو الكلب بباب بيته؟

لو كان من تناقض لما استحقَّ طرفٌ منهما علىٰ الأقل أن يكون حكمةً ولا مثلاً... التَّناقض يعني إمَّا عدم صوابهما معاً أو عدم صواب طرفٍ منهما علىٰ الأقل.

سأبيِّن حقيقتيهما معاً بعد قليل. ولٰكنَّ السُّؤال الذي ينبثق الآن من سابق الكلام: هل يعني ذٰلكَ وجوب عدم وجود تناقضٍ بَيْنَ الحكم/الأمثال؟ وهل

يمكن تعميم قولنا: أيُّ تناقضٍ بَيْنَ حكمتين أو مثلين يعني بطلان طرفٍ منهما علىٰ الأقل؟

هٰذا يقودنا إلىٰ تفاصيل وتشعبات ستطول بنا وليس هٰذا مكانها في حقيقة الأمر. ولٰكن لنقل باختصار: إذا انتبهنا إلىٰ الخصوصيَّة والعموميَّة والظَّرفيَّة في الحكمة وفي المثل، وعلو الحكمة علىٰ المثل فإنَّهُ يمكننا القول بوجوب عدم وجود تناقض... وما يوجد أو قد يوجد فإنَّهُ موجود بحكم التعبير عن العقليَّة الاجتماعيَّة للأمَّة أو المجتمع الذي يتبنى هٰذا التَّناقض أو هٰذه التَّناقضات.

الحقيقة التي قلَّ من يعطيها ما تستحقُّ من اهتمام وعناية، وقلَّ من يدركها علىٰ نحو ما تستحقُّ من أهميَّةٍ وخطورةٍ هي أنَّ الحكم والأمثال ليست محض أقوال مرسلةٍ، أو أطلقها أشخاص أذكياء أو حكماء وذهبت حكمة أو مثلاً. أبداً الحكمة قد يطلقها أَدَرَىٰ أو لم يدر شخصٌ عاديٌّ ورُبَّما أقل من عادي، ومن الحكم التي تعتنقها أكثر الشُّعوب قولهم: «خذوا الحكمة من أفواه المجانين».

إذن قائل الحكمة ليس بالضَّرورة فيلسوفاً أو حكيماً أو ذكيًّا وإن كانت أكثر الحكم أطلقها كبار العقول فيما نعتقد. الحكمة حكمة بذاتها، بمضمونها، بلغتها، بأسلوبها، بإيجازها، بدلالتها... وليست بقائلها، ولا تعرف الناس أحداً من قائلي الحكم إلا في استثناء قليلة أو نادرة.

لا يذهب أيُّ قولٍ جميلٍ حكمةً ولا مثلاً أبداً، مهما كان محكماً ودقيقاً، وإنَّمَا يذهب من الكلام حكمة أو ما مثلاً ما يتواطئ عليه المجتمع علىٰ أنَّهُ

حكمة. ولا يتواطئ المجتمع في مثل هٰذا الأمر إلا علىٰ ما ينسجم مع عقليته وبنيته التَّفكيريَّة ويلقى من ثمَّ ارتياحاً لاشعوريًّا في القلب لتقبله علىٰ أنَّهُ حكمة.

وما الحكمة؟

الحكمة هي ما يستحقُّ أو ما يجب أن يحتكم النَّاس بها وإليها. أي إنَّهَا تستحقُّ أن تكون مرجعاً للإنسان في عمله وحياته نسبيًّا أو مطلقاً، أي نسبة لموضوع الحكمة وظرفها أو علىٰ نحو مطلق في سائر الحياة.

وبهٰذا المعنى فإنَّ الحكم والأمثال، وهٰذا هو المهم في الموضوع، تمثل بنية تفكير المجتمع وطبيعته القيميَّة؛ الأخلاقيَّة والنَّفسيَّة والاجتماعيَّة والتَّربويَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة... ولذٰلك فهي تختزل قيمه وتفضيلاته ونمط تفكيره ونمط حياته، بل تعبر عن أسرار ودقائق هٰذا المجتمع التي تكشف عمَّا وراء ما يظهر في سلوكاته التي تبدو كأنَّهَا لا تفسير لها. الحكم والأمثال تفسر طبيعة سلوك المجتمع الجمعيِّ والفرديِّ النَّابع من العقل الجمعيِّ.

لنتساءل الآن: هل يوجد في قومٍ حكمة تقول: «أزهد النَّاس بالعالم أهله وجيرانه»؟. أو «لا كرامة لنبي بَيْنَ أهله»، أو «مزمار الحي لا يطرب»؟

رُبَّما تجد انتشاراً لمزمار الحي لا يطرب بلفظه أو ما يشبهه. ولٰكنَّ الحقيقة الأكيدة هي أنَّ العرب علىٰ نحو الخصوص والشَّرقيين علىٰ نحو العموم تنتشر فيهم ثقافة الزُّهد بالعالم وجحده وخاصة في ظلِّ التَّخلُّف. ولا ينتشر مثل ذٰلكَ بَيْنَ بقية الشُّعوب. وحَتَّىٰ الطرف المقابل: «كل ديك علىٰ مزبلته صياح»، فإنَّهَا في حدود علمي قليلة الانتشار بَيْنَ الشُّعوب الغربيَّة.

وبهٰذا المعنىٰ ينسب إلىٰ **أحمد زويل** الفائز بجائزة نوبل قولاً معبراً: «الغرب ليسوا عباقرة ونحن أغبياء... هم فقط يدعمون الفاشل حَتَّىٰ ينجح، ونحن نحارب الناجح حَتَّىٰ يفشل».

ومثل ذٰلك بل رُبَّما أبلغ منه حوار مفترض لا أظنه حقيقيًّا بَيْنَ مهندس عربي ومهندس ياباني. سأل المهندس العربي مهندساً يابانيًّا قائلاً:

. لما أنتم المهندسون اليابانيون تتفوقون علينا؟ هل أنت أذكى منا؟

فقال المهندس الياباني:

. بالعكس تماماً، أنتم العرب أذكى منا بكثير، أصلاً كل عشرة أشخاص منا فيهم واحد ذكي، بَيْنَما أنتم كل عشرة أشخاص فيهم تسعة أذكياء.

فاندهش المهندس العربي وفتح فاه وتدلى لسانه وسأل باستغراب:

. إذن أين المشكلة؟

فقال المهندس الياباني: الأمر بسيط، نحن نعمل ونسعى ونناضل لنجعل الذكي يقود التسعة الأغبياء، بَيْنَما أنتم تسعون وتجتهدون وتناضلون لتجعلوا الأحمق يقود الأذكياء.

القول والتَّحليل كلاهما جميلٌ ومعبِّرٌ عن حقيقة الحكم والأمثال السَّابقة وطبيعتي التَّفكير الشَّرقي والغربي. إذا عدنا إلىٰ عمقي الثَّقافتين الغربيَّة والعربيَّة أو الشَّرقية وجدنا هٰذه الحقيقة متمثِّلة فيهما بعمق. حسبك أنَّ الحكم القائلة بأنَّهُ «لا كرامة لنبي بَيْنَ أهله»، وأيضاً «أزهد الناس بالعالم أهله وجيرانه»، ليستا حديثتي العهد بحال من الأحوال.

أمَّا «أزهد الناس بالعالم أهله وجيرانه» فهو من الأحاديث الضَّعيفة التي نسبت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم. أورده الشيخ **الألباني** رحمه الله في

سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦/٢٧٢)، وقال هي لا تثبت مرفوعةً أو موقوفةً، ولٰكنَّهَا وردت عن بعض التَّابعين. وفي ذٰلكَ كناية عن مدى أهميَّة هٰذه الحكمة وقوَّتها التي أوصلت إلىٰ رفعها إلىٰ النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما «لا كرامة لنبي بَيْنَ أهله» ولها خواتيم متعدِّده مثل قومه، وطنه، بلده، أرضه... فهي من آيات الإنجيل، ففي إنجيل يوحنا، الإصحاح ٤/٤٤ جاء: «وبعد اليومين خرج من هناك ومضى إلىٰ الجليل، لأن **يسوع** نفسه شهد أنَّهُ ليس لنبيٍّ كرامة في وطنه».

المسيح عليه السلام شرقيٌّ. ولٰكنَّ الحكمة من الإنجيل والإنجيل كلام الله تعالىٰ، بغض النَّظر عما طاله من تحريف، وإذا نظرنا في القرآن الكريم وجدنا الكثير من الآيات بهٰذا المعنىٰ كقوله تعالى في الآية ١١ من سورة الحجر: «وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، وقوله تعالى في الآية ٣٠ من سورة يس: «وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» وغيرها غير قليل من الآيات.

الذي يبدو أنَّ الشَّرق يكاد يكون متفرِّداً في عدم تقدير العلماء بل ومحاربتهم أيضاً، وإن كان من نعترض بكلام الله تعالى فالأنبياء كلهم في الشَّرق ولم نعرف نبيًّا في الغرب. وهٰذه من أغرب ظواهر الشَّرق علىٰ الرَّغْمِ من كلِّ ما فيه من شيم ونبل يفتقر إليها الغرب.

المتنبي يقطع بأنَّ أمَّته، أمَّة العرب، هي الوحيدة التي تتسم بمحاربة النوابغ من أبنائها، وهو القائل في ذٰلكَ بيته الشهير:

أَنَا فِي أُمَّةٍ ــ تَدَارَكَها الله . غَرِيْبٌ كَصَالِحٍ في ثَمُوْدِ

ومثله ما قاله ابن الجوزي شعراً:

يَـــرَوْنَ العَجِيْـــبَ كَـــلامَ الغَرِيْـــبِ وَقَـــوْلَ القَرِيْـــبِ فَـــلا يُعْجِـــبُ
مَيَـــازِيْبُهُم إنْ تَنَـــدَّت بِخَـــيْرٍ إلىٰ غَـــيْرِ جِيْـــرَانِهِمْ تُقْلَـــبُ
وَعُـــذْرُهُمُ عِنْـــدَ تَـــوْبِيْخِهِم مُغَنِّيَـــةُ الحَـــيِّ مَـــا تُطْـــرِبُ

الأمثلة والشَّواهد علىٰ ذٰلكَ كثيرة أكثر من أن تحصىٰ في حقيقة الأمر بدءاً من الشِّعر الجاهلي إلىٰ اليوم، فإذا كنا قبل قليل استشهدنا بمنسوب **لأحمد زويل** فلنذكر ما قاله **حافظ إبراهيم** في أواسط القرن الماضي:

أَنَـــا لَـــوْلا أنَّ لِيْ مِـــنْ أُمَّـــتِي خَـاذلاً مَـا بِـتُّ أَشْـكُو النُّوَبـا
أمَّـــةٌ قَـــدْ فُـــتَّ فِيْ سَـــاعِدِهَا بُعْضُـــهَا الأَهْـــلَ وَحُـــبُّ الغُرَبَـــا

وهو لا يختلف عن قول **ابن الجوزي** في المبدأ. والفكرة المتفردة في كليهما ويتجاوزان بها كثيرين هي أنَّهُما انتبها إلىٰ أن الأهل لا يكتفون بتقزيم النابغ من أبنائهم، بل يتجاوزون ذٰلكَ إلىٰ عملقة الآخرين، الرَّفع من شأن الآخرين وعدم تقدير أبنائهم. وهنا مفتاح المصيبة الثانية، مفتاح فهم المثل المقابل: «كل كلب ببابه نباح وكل ديك علىٰ مزبلته صياح».

قلنا بداية إنَّهُ لا يوجد تناقض بَيْنَهما، فكلاهما صحيحٌ. وانظر الآن إلىٰ وجه التَّقابل الذي يعنينا هنا، لأنه توجد مقابلة له من وجه آخر. ففي حين تزهد الناس بالعالم أو النابغ الحقيقيِّ، ولهٰذا الأمر تحليلٌ نفسيٌّ طويلٌ، فإنَّهَا تتبجح وينتفخ ريشها بالدعي كثير الصياح أو الاستعراض وهو قليل الفعل، ولهٰذا أيضاً تحليلٌ نفسيٌّ طويلٌ.

اتفاق في المبدأ، وتناقض في السلوكين، وفي كلا السلوكين تناقض مع المنطق، ومع الواجب. تضحك وأنت تسمع لشخص يتحدث عن القيمة العالمية

لكتاب أو مقال أخيه أو قريبه أو ابن حزبه أو طائفته وأنت تعلم حقيقة الشخص الذي يتم الحديث عنه، وتعرف أنَّ قيمته وقيمة الموضوع الذين يتم رفعه إلىٰ مستوى العالمية لا أساس لها من الصِّحَّة وأنَّ الكلام محض أوهام أو اختلاقات شعورية أو لاشعورية.

شأن الديك الإنسان هو شأن الديك بَيْنَ الدجاجات. كما الدجاجات تمجدن ديكهن بالسمع والطاعة والمشي وراءه من دون مناقشة كذٰلكَ يقوم الناس بدور الدجاجات مع الشَّخص الفارغ الذي ينفش ريشه ويستعرض بَيْنَهم قليله علىٰ أنَّهُ كثير، وضحله علىٰ أنَّهُ غزير، وشحه علىٰ أنَّهُ وفير، وخشنه علىٰ أنَّهُ وثير، ومقرفه علىٰ أنَّهُ مثير... فيغدو كالديك الذي يستقوي فوق مزبلته ويأخذ بالصياح وهو في غاية الارتياح، وهو لو ابتعد عن مزبلته قليلاً، لكان كالعصفور إذا كان مبلولاً، مهما دارى لن يبدو إلا ذليلاً، أو كان كالديك النتيف يخاف ولا يخيف، إن أراد أن يصيح خرج صوته كأنَّهُ مبحوح.

ومع ما يقع فيه هٰذا الفارغ المنفوش الريش من الخبط والخلط والخبص واللبص يظلُّ بَيْنَ أهله أثيراً، ويرون قليله كثيراً، ويعدون غثه كنزاً كبيراً... وهٰؤلاء أنفسهم هم الذين يبخسون النابغ الحقيقي التقديراً، ويزهدون فيه زهداً كبيراً، علىٰ الرَّغْمِ من أنَّهُم له أهلاً.

هكذا نحن في الشَّرق، مولعون بتقزيم النوابغ وعملقة الأقزام، مولعون بتقزيم القريب وعملقة الغريب. وليس في هٰذا أيُّ جلد للذات، ولا أيُّ افتئات علىٰ الحقيقة، وما سقناه من شواهد من الحكم والأشعار والأخبار يكفي، وما سقناه ليس إلا عيِّنةً قليلة من كثيرٍ. حسبنا منها

أنَّها الحكم والأمثال التي قرَّت في العقل الجمعي فأقرها مسطرة لتقاس بها السلوكات وتفهم من خلالها.

إنَّهَا واحدة من عجائب العقل البشري. واحدة وحسب، فعجائب العقل البشري كثيرة حَتَّىٰ تكاد تؤمن أنَّك لا تبالغ إذا قلت إنَّهَا لا تحصىٰ. ومع الأسف الشَّديد أنَّ هٰذه الظَّاهرة تكاد تكون مقتصرةً علىٰ العالم الشَّرقي وحده وأكثر ما توجد في الشَّرق توجد في عالمنا العربي.

لماذا؟

توجد تحليلات نفسيَّةٌ طويلةٌ كما أشرنا ووقفنا عندها عرضاً ورُبَّما جوهراً في غير هٰذا الموضع. ولٰكنَّهَا أولاً وأخيراً سرٌّ من أسرار الخالق في خلقه. ولا أعني أبداً ولا بحال من الأحوال أنَّ الله أراد ذٰلكَ، فالله تعالى في صريح الآيات أنكر هٰذا السُّلوك وأدانه. وأبى الإنسان إلا أن يكون كنوداً كفوراً. وفي هٰذا دلالة صريحة عَلىٰ أنَّ الله تَعَالىٰ لم يرد من الإنسان ذٰلك، ولم يخلقه ليكون كَذٰلكَ، وإنَّما الإنسان اختار أن يكون كَذٰلكَ. وإنما قلت إنَّهُ سر في القوانين في الخلق أي سر في القوانين التي يفكر الإنسان بها ومن خلالها.

وعَلىٰ أي حال، في الختام إنَّ مثل هٰذا السلوك في هٰذا الموضوع تحديداً هو سمة من سمات المجتمع المتخلف والأمة المتخلفة بالضرورة؛ إنَّهُ ضرب من أخلاق التخلف. وَذٰلكَ يعني أَنَّهُ يظهر أكثر ما يظهر عندما تكون الأمَّة متخلفة. ولا ينفي أن يظهر في حالة تحضُّر الأمة، ولٰكنَّ ظهوره استثنائي بالضرورة. وإذا نظرنا إلىٰ الحضارة الغربية في حالة التخلف أي في العصور الوسطى وجدنا أنَّ هٰذا السلوك في المبدأ وليس الصورة ذاتها قد كان

كثيراً أيضاً ولم يكن قليلاً حَتَّىٰ إنَّ المؤسسات الرسمية الحاكمة هي التي كانت تتولى أمر محاربة المبدعين والعلماء، ولك فيمن أعدمتهم الكنيسة خير مثال عَلىٰ ذٰلك.

ومع ذٰلك فإنَّ ثَمَّةَ بعض الفوارق بَيْنَ الشرق والغرب في ذٰلك حَتَّىٰ في ظل تحقق الشروط ذاتها من التحضر أو التخلف. ستختلف صور سلوكات أخلاق التخلق ولٰكنَّهَا لن تختلف في المبدأ.

الجوائز ومرفقات الجرائد والسلوك الحضاري

كتب هٰذا الفصل في أواخر عام ٢٠٠٢م فيما أذكر، وتأخر نشره بعض الوقت إلى أن نشر تحت عنوان: مرفقات الجرائد ومكونات الوعي الحضاري؛ الهدايا المجانية ـ جريدة البعث ـ دمشق ـ العدد ١٢٢١٠ ـ الأربعاء٢٤ رمضان ١٤٢٤هـ الموافق لـ ١٩ تشرين الثاني ٢٠٠٣م.

مـن المؤكـد أَنَّـهُ لا يعنينـا هنـا تتبـع تـاريخ الحركـة الإعلاميَّة والإعلانيَّة عَلىٰ ما بَيْنَهما من فرق وتلازم في الوقت ذاته. ولٰكن مما لا بُدَّ من الإشارة إليه هو الحركـة الإعلاميَّـة قَـدْ حقَّقـت تطـوراتٍ مذهلـةً في القـرن العشـرين خاصَّـة وأدت إِلَى اخـتراع وسـائل إعلاميَّة جديدة بإمكانات جديدة ونوعيات جديدة وطاقـات جديـدة... صـارت في المحصـلة ميـادين إعلامية مستقلة من جهة، وتؤدِّي الرِّسالة ذاتها بمعنى من المعاني من جهة أُخْرَى، وتتنافس فيما بَيْتَها من جهة ثالثة.

الجوائز الضحك على اللحى

من المؤَكَّد أنَّ الغايات بالتَّجريد واحدة على الرَّغْمِ من تناقض ما يتجسد به هٰذا التَّجريد. أعني أنَّ الغاية من المتاجرة بالإعلام، من امتلاك وسيلة إعلاميَّة، مـن الـتَّحكُّم بوسيلة إعلاميَّـة... هـو بالدرجـة الأولى التـأثير في المتلقـي، والـربح المـادي بالدَّرجـة الثَّانيـة. قَـدْ يتقـدَّم الـرِّبح المـادي عَلـىٰ رسـالة الفعـل والتـأثير في المتلقـي، ولٰكـن إذا كـان ذٰلـك فـإنَّ المعادلـة في ظـنِّي ستعاني مـن خلـل لأنَّ آليـة التَّعامـل مـع الوسـيلة الإعلاميـة سـتكون محـض معاملـة تجاريـة جـاهزة للتضـحية بالكثير، حَتَّى المبادئ والقيم...، من أجل الربح... وهٰذا قائم ولا يوجد ما يحول دونه عقلاً ومنطقاً.

في سبيل هٰذا وذاك، عَلىٰ أيِّ حال، اشتدت ومازالت تشتد حرارة التنافس بَيْنَ مالكي وسائل الإعلام والمتحكمين بها عَلىٰ امتلاك قلب المتلقي وعقله، وتنوعت وسائل التنافس ما بَيْنَ التقاني والمادي والزمني والمحفزات والمشجعات وفنون العرض والسَّرد والمسابقات والجوائز والهدايا...

هنا أتوقف عن التَّمهيد لأبدأ من نهايته؛ المسابقات والجوائز والهدايا...!! لأتوقف عندها وتستحق أن يوقف عنها من دون شك لأنَّها مسألة مهمة، ومهمَّة جدًّا.

المسابقات المرتبة بجوائز بداية المشكلة، إنَّها تعاني من الافتقار إلىٰ المصداقية والنزاهة والأمانة... حَتَّىٰ باتت الناس معظمها يائسة من إمكانيَّة تحقُّق المصداقية لهٰذه المسابقات، وعَلىٰ الرَّغْمِ من ذٰلك يدفعها اليأس ذاته والأمل بالتخلص من هٰذا اليأس إِلَىٰ المشاركة في هٰذه المسابقات.

لن أستطيع تأكيد أنَّ كلَّ وسائل إعلامنا تفتقر إِلَىٰ هٰذه المصداقية والنزاهة والأمانة، وَلٰكِنِّي أستطيع أن أجزم أنَّ الكثير منها يعيش حالة طلاق بائن معها أَو مع بعضها عَلىٰ الأقل في هٰذه المسابقات. ولأمثلة الَّتي أعرفها ويعرفها الكثيرون كثيرة عن مختلف وسائل الإعلام؛ الإذاعة، التلفزيون، الجرائد، المجلات... أذكر منها واحدة فَقَطْ لما فيها من طرافة:

لي صديق لا يعرف عن الرياضة شيئاً، وليس لديه أدنىٰ اهتمام بها، ولي صديق آخر أظنه من أكبر المراجع في كرة لرياضة عامة وفي كرة القدم خاصَّةً لا تغرب عنه شاردة ولا واردة في كرة القدم... وكلاهما صديقان أيضاً... والذي حَدَثَ أنَّ إحدىٰ الجرائد أعلنت عن مسابقة في غضون كأس العالم

الَّتي احتضنتها فرنسا ١٩٩٨م، وكان المطلوب في المسابقة توقع الفائز ببطولة العالم وتوقع الهدَّاف. وعندما أُعلنت النَّتائج أُعلنت عَلىٰ النَّحو التالي: (الوحيد الذي توقع البطل والهداف هو فلان) ولهٰذا الفلان هو الصديق أي صديقي الأول الذي لا يعرف شيئاً عن الرياضة أبداً!! فصُعق الصديق الخبير بالرياضة وبكرة القدم وذهب إلىٰ صديقه عَلىٰ الفور والاغتياظ عَلىٰ كل معالمه، وقال له:

ـ أنا الخبير والمرجع بكرة القدم لم أكن أعرف أنَّ هناك لاعباً اسمه (سوكر)، ولم يتوقع خبير كرة قدم في العالم كله أنَّ (سوكر) لهٰذا سيكون الهداف... فمن أين سمعت أنت بهذا اللاعب؟ وكيف استطعت أن تتوقع أَنَّهُ سيكون الهداف وأنت الذي لا يعرف عن الرياضة شيئاً؟!

الذي كان هو أنَّ هذا الصديق لم يشترك في المسابقة أبداً، ولكنَّهُ صاحب فضل على المشرف على المسابقة، (ويكون صديقاً في حالات أُخْرَى أَو قريباً..) فكان الشكر على المعروف أَو الفضل بهذه الطريقة الحضارية!!

الصديق **سهيل خليل** المذيع المتميز المتقاعد الذي يعرف الكثير عن هٰذه القصص أعلن في الصفحة الَّتي يشرف عليها في جريدة الوحدة (الجريدة المحليَّة في اللاذقية) عن مسابقة لأفضل تعليق عَلىٰ نص نشرته الجريدة، وعن جائزة قيِّمة لأفضل تعليق. وبعد أيام أعلن النَّتائج وكانت باختصار عَلىٰ النَّحو التالي:

ـ «كان تعليق فلان جيِّداً، وفلان ممتازاً، وفلان كذا وكذا... وهكذا... أمَّا الفائز فهو **إيهاب سهيل خليل** لأنَّهُ ابن المشرف عَلىٰ المسابقة علما أَنَّهُ لم يرسل أيَّ تعليق»...

هٰذا التَّعليق السَّاخر يختصر المشكلة، والمثال السَّابق عليه ليس إلا واحداً من حالات يمكن القول من دون مبالغة إنَّهَا الحالة العامة والشذوذ والاستثناءات هي القلة القليلة. وإذا أردنا أن نحلل هٰذه الظَّاهرة ومعرفة أسبابها فسنجد أنفسنا أمام احتمالات، وعبثاً أن نحاول الوقوف عَلىٰ تفسيرٍ مقبولٍ.

المحاباة، المجاملة، النِّفاق، الوصوليَّة... كلُّها أسباب يمكن أن تقف وراء هٰذه الظَّاهرة، وهي كلها غير مقبولة، ولا يمكن أن تجد من المنطق أَو الأخلاق أذناً تعيرها أدنى الإصغاء؛ كلها أخلاق مجتمع متخلف يصر عَلىٰ إعادة إنتاج تخلف وتكريسه لأَنَّهُ تصدر عن أناس يفترض بهم أَنَّهُم هم من يقود المركب لتجاوز التَّخلُّف. يتصرَّف هٰؤلاء القيمون عَلىٰ مسابقات الجوائز في وسائل إعلامنا المختلفة وكأَنَّهُم يدفعون الجوائز من جيوبهم الخاصَّة، وكأَنَّهُم هم الأوصياء عَلىٰ هٰذه الجوائز، وهم الذين يحق لهم تقدير من يستحقها ومن لا يستحقها...

ولٰكن إذا جرَّدنا هٰذه الأسباب من صورها فإنَّنا سنصل إِلَىٰ القاسم المشترك بَيْنها وهو الوعي الحضاري، وروح الحضارة ذٰلك أنَّ الأخلاق الإيجابيَّة هي أخلاق الحضارة، والتَّخلف أخلاقه هي السَّلب والخلل. إنها تعبير صريح عن العقلية الأخلاقية المتخلف التي تحكم المجتمع، وتؤكد ما ذهب إليه قبل أكثر من عشر سنوات عندما قلت إنَّ شهادات المرء العليا لا تحول بَيْنَه وبَيْنَ أن يمارس أخلاق مجتمعه المتخلف لأنَّ العقلية الجمعية لها سلطة عَلىٰ الفرد أعلىٰ من سلطته الشَّخصيَّة عَلىٰ أخلاقه التي يمكن أن تكون راقية.

معاناتنا إذن هي من الافتقار إِلَى الروح الحضارية الراقية، إِلَىٰ السُّمو الحضاري الذي يرقىٰ بأخلاقنا إِلَىٰ أخلاق النبل الحضاري.

ولٰكن أن نفهم السَّبب عَلىٰ هٰذا النَّحو لا يعني أبداً الركون إِلَىٰ أنَّنا متخلِّفون، ولأنَّنا متخلِّفون فإنَّ هٰذه الظَّاهرة لن تزول، وإنَّما يعني أن نتابعها ونعالجها كي نشعل شمعة ونكف عن لعن الظلام، فمهما أنارت هٰذه الشمعة خير ألف مرة من بقاء دامس الظلام.

فهل سنبدأ؟

أرجو ذٰلك.

مرفقات الجرائد والسلوك الحضاري

بداعي التَّنافس عَلىٰ كسب القراء، بداعي نشر الثقافة، بداعي الفائدة العامة... بأيِّ داعٍ من الدواعي... بدأت وسائل الإعلام المكتوبة خاصَّة في السَّنوات الأخيرة بإرفاق بعض الهدايا المجانيَّة أسبوعيًّا أو شهريًّا أو بأنظمة زمنيَّة أُخْرَىٰ. وتمثِّل هٰذه الهدايا غالباً بكتب، أَو ملاحق إضافيَّة أَو غيرها.

الفكرة جيِّدة بكلِّ تأكيدٍ، وهي خطوةٌ راقيةٌ وحضاريَّةٌ في الوقت ذاته. ولٰكِنَّها ألقيت في فوهة بركان غير حضاري وعوملت معاملةً غير حضاريَّةٍ.

ليس ثَمَّةَ اعتراض عَلىٰ طبيعة الملحقات أَو الهدايا المجانية هٰذه، ولا عَلىٰ مدىٰ التَّوفيق في اختيارها فقد لاقىٰ ذٰلك كثيراً من المناقشات والاعتراضات من كثيرٍ من المثقفين عَلىٰ امتداد الوطن العربي... إنَّهُ أمر لا يعنينا هنا والآن، لأنَّ ما سنناقشه أمرٌ آخر تماماً، وحسبي أن أقول في هٰذا الإطار: «تُشكر الجرائد عَلىٰ هٰذه الجهود الكريمة الَّتي تستحقُّ عليها كلَّ تقديرٍ حَتَّىٰ ولو أخطأت الخيار أَو لم توفَّق فيه، فهي إن لم توفَّق في مرَّةٍ فستوفق في مرات».

ما يعنينا هنا هو أنَّ هٰذه الهدايا عُوملت معاملةً غير مناسبة لها عَلىٰ الإطلاق من الجمهور من جهة ومن مندوبي توزيع الجرائد من جهة ثانية.

أمَّا الجمهور فقد نظر إلىٰ هٰذه الهدايا إمَّا عَلىٰ أَنَّهَا مكسب هو أحقُّ في السِّباق إلىٰ اكتسابه أَو عَلىٰ أَنَّهَا كمية ورقيَّة زائدة يمكن الاستفادة منها، ولذلك ازداد الإقبال عَلىٰ شراء الجرائد في الأيام الَّتي توزع فيها هٰذه الهدايا ليس لشيء إلا لعقلية فرصة المكسب الذي ينبغي الاستئثار به.

والذي حدث هنا أنَّ المتابعين الحقيقيين لوسائل الإعلام صاروا عَلىٰ الهامش في هٰذه الأيام الَّتي توزع فيها هٰذه الهدايا، ويجدون عنتاً في الحصول عَلىٰ الجرائد.

أمَّا الباعة (معظمهم لا كلهم بالتأكيد) فقد استفادوا من هٰذه الظَّاهرة، ورُبَّما لم يكونوا بانتظارها حَتَّى يستفيدوا منها، إذ إنَّهُم تعاملوا مع هٰذه الهدايا بعين ضيقة إذ كيف يمكن أن يهدى الزبون هدية (كتاب أَو غيره) ثمنها أضعاف ثمن السلعة الأصلية (الجريدة)؟! أليس شيئاً يطير العقل؟! ولذلك راحوا من فور استلام الجرائد يخفون الهدايا ويبيعونها مستقلة، أَو يعطونها لمن يقدرون أَنَّهُ يستحقها، أَو لزبائنهم الخاصين، أو غالباً ما يبيعونها بطرقهم الخاصة فيما بعد... أَو غير ذٰلك مما يشبهه. وفوق ذٰلك كلِّه يضربون من يبيعونهم هٰذه الهدايا أَو يهبونها لهم بالمنية والشكوى... وكأَنَّهُم يعطون الهبات من جيوبهم أَو يدفعون ثمنها من رواتبهم!!

يزعم بعض الباعة أنَّ الجرائد تصلهم من دون الهدايا. هٰذا أمر مقبول ويمكن أن يكون، ولٰكن من المؤكد، عَلىٰ الأقل في الافتراض النظري، أنَّ إدارات الجرائد ذاتها لا يمكن أن تفعل ذٰلك، لا يمكن أن توزع جريدة بهدية وأُخْرَى بلا هدية في اليوم ذاته لأنَّ أحداً لم يضربهم عَلىٰ أيدهم ليوزعوا هٰذه الهدايا، ولأَنَّهُم هم الذين تعهدوا بذلك ولم يكونوا ملزمين به عَلىٰ أيِّ حال... كان من الممكن

ألا يفعلوا ذٰلك ولا يحقُّ لأحد أن يلومهم، ولٰكن طالما أرادوا ذٰلك وجب التزامهم به.

من المؤكَّد أنَّ الطَّمع بربح أكبر هو الذي يقف وراء تصرف الباعة. ولٰكن من المؤكَّد أيضاً أن هٰذا أمر غير جائز لأنَّ بيع الجرائد والمجلات ليس تجارة مرتبطة بالعرض والطب، وإنَّما هي بيع برسم الأمانة والتحديد لا برسم التَّفويض ولذلك لا يحقُّ للبائع التصرف بها عَلىٰ أيِّ نحوٍ غير الذي أوكل به.

المشكلة الحقيقية ليست في الطمع في الربح فهذا حقٌّ بل رُبَّما يكون واجباً، وإنَّما المشكلة تكمن في العقلية الَّتي تقف وراء مثل هٰذا السُّلوك، هٰذه العقلية الَّتي توحي لهؤلاء بالوصاية عَلىٰ التقدير والتدبير... إنَّها عقليَّة التخلف وعدم وصول الوعي الحضاري إِلىٰ درجة قدرة التمييز بَيْنَ الخاص والعام، بَيْنَ الحق والواجب، بَيْنَ ما يجوز وما لا يجوز. ولذلك فإن مثل هٰذا السلوك ليس محصوراً بباعة الجرائد والمجلات فَقَطْ، إنَّهُ سلوك يكاد يكون عامًّا نجده في كثير من الميادين حَتَّى ميادين الفكر والثقافة والأدب يصعب تبرئتها من هٰذه المثلبة...

ولذلك فإنَّ المطلوب ليس تتبع باعة الجرائد والمجلات، مع وجوب ذٰلك، وإنَّما المطلوب هو تتبع عقلية التَّخلُّف ومحاصرتها بكلِّ الطَّاقات الممكنة، والأدوات الممكنة، والأسلحة الممكنة... وفي كلِّ الأوقات من دون هوادة ولا استراحة.

قَدْ يكون من السهل نظريًّا تتبع هٰذه الحالات ومراقبتها، ولٰكنَّ ذٰلك شبه متعذِّر عمليًّا وواقعيًّا لأنَّهُ من الممتنع أن يرصد البائع مثلاً بمراقب دائمٍ لا يغيب عنه، وإن تحقَّق ذلك فرُبَّما يتَّفق الرقيب والمرقوب...

الحلُّ الأمثل، وهو الأجدى، والذي يحتاج إلىٰ وقتٍ أطول، ويدوم فعله أطول وأطول... هو إحياء الروح الحضارية في النفوس وتحول الالتزام بالأمانة والمسؤولية من خوف من الرَّقيب إلىٰ خلق أصيل، إلىٰ طبع رقيبه منه لا من خارجه.

كيف يمكن أن يكون ذٰلك؟

أظنُّ أنَّ الحلول كثيرة، وهي بانتظار العمل بها.

الخلول كثيرة وكجدُّ كثيرة فهل من يعمل؟!

الاستقواء بالأعداء على الأشقاء

أخلاق التخلف

مما لا يجوز تجاهل طرحه في مثل هٰذا الكتاب مسألة خطيرة جدُّ خطيرة، بل رُبَّما يصح أن توصف بأنَّهَا أخطر أنواع سلوكات أخلاق التَّخلُّف وضروبه، وأشدها إثارة للإشمزاز والغضب والحيرة والارتباك في الوقت ذاته. إنَّهَا الاستقواء بالأعداء عَلىٰ الأشقاء.

الاستقواء بالأعداء عَلىٰ الأشقاء ظاهرة لا يجهلها أحد اليوم وخاصة في بلدان التَّخلف وخاصة منها الدول العربية.

الكل يحاول ضبط توازنه النَّفسي والانفعالي لمحاولة استيعاب حقيقة استقواء الأنظمة العربية المسلمة بأعداء العرب وأعداء الإسلام عَلىٰ أشقائهم في العروبة والإسلام. ظاهرة مرعبة وليست غريبة وعجيبة وحسب.شيء يضع العقل في الكفِّ كما يقولون.

الخيانة والعمالة بكل مقوماتها وتفاصيلها وكليَّاتها وجزئيَّاتها لا يمكن أن تكفي لفهم حقيقة استعانة سلاطين العرب بأمريكا وأوروبا لتدمير دول عربية شقيقة بغض النظر عما إذا كانت الدولة المستعدىٰ عليها عَلىٰ حق أم باطل... منطقيًّا لا يمكن أن تكون عَلىٰ باطل لأن المستعدي منطقيًّا هو الباطل.

كل أنواع الخيانة ومستوياتها تعجز عن تفسير ما نراه اليوم فقط مما سميناه استقواء الحكام العرب بأعداء العرب والإسلام لتدمير دول عربية أُخرىٰ... قلت فقط لأن ما يفعلونه يتجاوز ذٰلك بكثير جدًّا إلىٰ الحد الذي يذوب في العقل كما يذوب الثَّلج تحت شمسٍ ساطعة.

عَلىٰ أي حال لا يغيب التَّاريخ عن بال الكثيرين. لنعد قليلاً وكثيراً إلىٰ الوراء وننظر في التَّاريخ.

كان الغساسنة أتباع الرُّوم أو الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، وكانت أرضهم عَلىٰ امتداد بلاد الشَّام. وكان المناذرة أتباع الإمبراطوريَّة الفارسيَّة وتمتدُّ أرضهم من تخوم بلاد الشَّام إلىٰ أقاصي أطراف الخليج العربي؛ الأحواز أو الأهواز أو عربستان، وعمان من الجنوب وتخوم نجد.

عَلىٰ مدار نحو ثمانمئة سنة، ثمانمئة سنة وليس ثمان سنوات، ولا ثمانين سنة، قدم المناذرة والغساسنة العرب الأقحاح أنموذجاً صارخاً في وضوح الاستقواء بالأعداء عَلىٰ الأشقاء، وفي تتمة ذٰلك من الطرف الآخر أيضاً.

عندما أقول نحو ثمانمئة سنة فيجب أن تصعِّد قدرتك التَّخيُّليَّة لتدرك مَدَىٰ هول المأساة وعظمتها.

والأدهىٰ من ذٰلك والأعظم في السِّياق ذاته أنَّ الفرس كانوا إذا أرادوا تأديب أو الاعتداء عَلىٰ قوم من العرب كانوا يكلِّفون المناذرة بذٰلك، وكذٰلك الروم إذا أرادوا تأديب أو الاعتداء عَلىٰ قوم من العرب كان يكلفون الغساسنة بذلك. وكان الرُّوم والفرس إذا اقتتلوا كانت غالباً طلائع جيش الروم من الغساسنة، وطلائع جيش الفرس من المناذرة.

ظلَّ الغساسنة والمناذرة كذٰلك حَتَّىٰ نهاية دولتيهما عَلىٰ يد الفتح الإسلامي. والطَّريف في الأمر هنا أنَّ المناذرة كانوا دريئة الفرس في مواجهة المسلمين فأوَّل مواجهة بَيْنَ المسلمين والإمبراطورية الفارسية كان المناذرة هم جيش الفرس الأول الذي تولى صد الفتح الإسلامي. وكذلك كان الغساسنة تقريبا في الدفاع عن الروم لولا أَنَّهُم كانوا مشتتين وآثروا الوقوف مع المسلمين بعد تجربتهم ومعرفة أخلاقهم.

مع الإسلام انتقل العرب من طور التَّخلُّف إلىٰ الحضارة وارتقت الأخلاق جملة وتفصيلاً. ومع بدء انهيار الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة عادت أخلاق التخلف إلىٰ الظُّهور بدءاً من الأندلس في أبرز تجليَّاتها التي قلما يرى الدارسون غيرها. ولٰكنَّهَا في حقيقة الأمر تجلت في المشرق العربي تجليات عديدة في فتح الأبواب للغزاة والاستقواء بالغزاة من قبل أمراء الولايات والممالك في أسقاع غير قليلة.

بدأ التخلف يسري في بنيان العقلية العربية والإسلامية منذ أواخر الخلافة العباسية. لا يحل التخلف فجأة كما لا يحل الضر فجأة، بالتدريج الطويل تسير الأمور من القاع إلىٰ الذروة، ومن الذروة إلىٰ الحضيض. ولولا أن قيَّض الله العثمانية وإقامة الخلافة العثمانية التي لملمت شتات العرب والمسلمين وحمت العرب والمسلمين لرُبَّما تلاشى العرب.

أما اليوم فيتخيل الكثيرون أنَّ ظاهرة الاستقواء بالأعداء عَلىٰ الأشقاء لم تظهر إلا مؤخراً في العدوان عَلىٰ العراق لتحرير الكويت وما بعدها من الاستقواء عَلىٰ العراق أيضاً لاحتلاله من قبل أمريكا وبعد ذٰلك في مظاهر متعددة في لبنان والعراق وسوريا واليمن...

الحقيقة أنَّ هٰذا وهم. استقواء الزعماء العرب بالأعداء عَلىٰ الأشقاء بدأ مع ما يسمى الاستقلال الذي جاء بهذه الأنظمة التي مهد لها الاستعمار أو ساعدها في الانقلاب عَلىٰ الأنظمة الشريفة.

ولا أقول لا أذيع سرًّا بل أقول أذيع الآن سرًّا قلته من قبل ومر عَلىٰ الناس مرور الكرام. يمثل **جمال عبد الناصر** عنوان مرحلة ما يسمى الاستقلال، وبداية حكم أذناب الاستعمار وعملائه، ويمثل أيضاً مرحلة بداية تصارع الأنظمة العربية والتأمر عَلىٰ بعضها بفضل **جمال عبد الناصر** الذي زرع وأشعل فتيل المؤامرات بَيْنَ الدول العربية ضد بعضها.

ولتفهم لماذا فعل ذٰلك **عبد الناصر** وكيف صار ظاهرة عامة أبين لك الحقيقة التالية:

هناك أنظمة عميلة زرعها الاستعمار قبل **عبد الناصر** هي التي ما زالت مستمرة إِلىٰ الآن، وكان **عبد الناصر** بداية الجيل الثاني الذي سينقلب عَلىٰ من لم يضعهم الاستعمار ولم يستطع استعمالهم عملاء له... حَتَّىٰ اكتملت المنظومة العربية كلها تابعة وعميلة للاستعمار... الاستعمار دلالة.

منذ بداية عصر عبد الناصر وحَتَّىٰ لا أستطيع التحديد بدقة لعدم وصولي إِلىٰ قرائن تقودني إِلىٰ التحديد، ولٰكنَّ رُبَّما بدايات القرن الحادي والعشرين أو أواسط التسعينيات... لست أكيداً عَلىٰ أي حال... المهم منذ أيام عبد الناصر إِلىٰ أواسط التسعينيات أو أواخرها كان كل زعيم عربي يعرف أَنَّهُ خائن وعميل ومندوب للاستعمار، ولٰكنَّهُ لا يعرف أنَّ الآخرين مثله، ولذلك كان يتآمر عليهم؛ وهٰذا ما بدأه **عبد الناصر** تحديداً، الذي يرفض الوحدة مع هٰذه الدولة أو تلك ولٰكنَّهُ يرتب مؤامرات انقلابية في هٰذه الدول... لإرضاء الأسياد،

وإقناعهم بأنه يقوم بواجبه بإخلاص. ولم يكن إخلاص بقية الحكام أقل من إخلاص **عبد الناصر** لأسيادهم، كلهم من دون استثناء، فتم القضاء عَلىٰ الفورة القوميَّة بعقليَّة المؤامرات هٰذه بَيْنَ الدُّول العربيَّة.

كل الدول العربية في تلك الفترة كانت تدفع الأموال أو الإغراءات لأمريكا أو إسرائيل أو فرنسا أو بريطانيا للاعتداء عَلىٰ دولة أُخرىٰ أو توريط دولة أُخرىٰ بمصيبة ما. في أواخر التسعينيات كشف مسؤول إسرائيل أن دولة خليجية هي التي طلبت منهم القيام بعدوان ١٩٦٧م لتثيب حدود إسرائيل بالتَّفاوض عَلىٰ حدود جديدة وتثبيت القديمة وكان قرار الأمم المتحدة جاهزاً لهٰذا الشأن... لا أعدد الأمثلة فهي كثيرة.

مع بعد التَّعارف بَيْنَ الزُّعماء عَلىٰ أَنَّهُم كلهم عملاء. وقد أعرب عن ذٰلك رئيس ليبيا **معمر القذافي** بوضوح في لقاء معه عَلىٰ إذاعة مونت كالروا عام ١٩٩٤م قال فيه:

. «كل الزعماء العرب عملاء للغرب».

قالت له المذيعة سائلة ومستغربة:

. «حَتَّىٰ أنت؟!».

فأجاب بثقة وهدوء:

. «حَتَّىٰ أنا».

بعدما أن تعارفت الجوقة عَلىٰ بعضها تضافرت مع بعضها وتضامت وصار الاستقواء بالأعداء عَلىٰ الشعوب وعَلىٰ المسلمين الأشقاء كما يحدث اليوم ضد تركيا. وفي هٰذا ما يفسر تضامن الأنظمة العربية كلها مع بعضها في مواجهة شعوب الرَّبيع العربي وحماية بعضهم بعضهم.

إذن حَتَّىٰ بعد انفاضحهم أمام بعضهم واكتشافهم أنهم كلهم جوقة واحدة لم تتغير سياسيتهم في الاستقواء بالأعداء ضد الأشقاء، ولٰكنَّ انتقلوا إلىٰ أشقاء آخرين. إلىٰ الأشقاء الذين يرون أنَّ الغرب لا يرضى عليهم، مثل تركيا اليوم كما قلنا.

حسناً، السؤال الآن:

هل لهٰذا السلوك علاقة بأخلاق التخلف والتحضر؟

وهل هو ماركة عربية مسجلة أم ظاهرة عالمية؟

هٰذا الأمر يقودنا إلىٰ التَّمييز بَيْنَ عقليتي الشَّرق والغرب عَلىٰ العموم وعَلىٰ خصوص التَّحضُّر والتَّخلُّف، وتلك مسألة طويلة ولها تشعباتها التي تبعدنا عن موضوعنا.

صحيح أن الغرب غرب، إلا أَنَّهُ أمم وأعراق وأديان ولغات لا يصح عليه حكم الأشقاء العرب العرق الواحد واللغة الواحدة والدين الواحد، ولذلك فإنَّ المقارنة والمقايسة بَيْنَهما أمر لا يخلو من المجازفة، ولا يتَّصف بالصَّواب.

ومع ذٰلك سنعد الغرب كله عرقاً واحدا وأشقاء فيما بَيْنَهم، وهم كَذٰلكَ بمعنى من المعاني لا يصل إلىٰ حد ما بَيْنَ العرب من روابط.

وجدنا عبر تاريخ الغرب في الوسطى أي عصور التخلف الأوروبي بعضاً من مظاهر الاستعانة بالخلافة العثمانية في بعض نزاعاتهم، ولا أتعمق في سبر الأسباب والتَّفسير العميق لذٰلكَ وإنما سأعدها من باب أخلاق التخلف التي وجدنا عند العرب في مراحل ثلاث. إلا أنَّهَا في الغرب لا تصل أبداً إلىٰ أكثر من عشرة بالمئة مما كان عند العرب ولم يزل.

عَلىٰ أي حال فإنَّ هٰذا السلوك الرعاعي الذي يصعب تفسيره ولا نجده في أي ضرب من ضروب عالم الحيوان أو الحشرات، هو من ضروب أخلاقق التَّخلُّف وتبعات التَّخلُّف والعقليَّة التي يصنعها في الأمَّة عقليَّة جمعيَّة وعقليَّات أفراد كما أوضحنا غير مرة.

ومع ذٰلك فإنَّ هٰذا لا يبرر هٰذا السُّلوك الذي أكرِّر أَنَّهُ سلوكٌ مربكٌ ومحيِّرٌ إلىٰ أبعد الحدود.

من الممكن الاكتفاء بأنه ضرب من ضروب أخلاق التَّخلُّف. ولٰكنَّ العصي عَلىٰ التَّحليل لماذا العرب يتجلَّى فيهم هٰذا السلوك أكثر من غيرهم وهم في حالة تخلف مماثل؟! وقد لاحظنا كيف كان ذٰلك قبل الإسلام وبعد الإسلام. أقول ذٰلك تبيانا ودحضاً لمن قد يزج بالإسلام في الموضوع.

تمارس العقيدة تأثيراً في ذٰلك، ولا يمكن إنكار ذٰلك، إلا أنَّ هٰذا السبب غير كاف للتفسير، طبعاً هٰذا عَلىٰ اعتبار أنَّ عقائد الحكام العرب اليوم ليست عقيدة الإسلام بحال من الأحوال... ومع ذٰلك يبقىٰ ثَمَّةَ الكثير بحاجة إلىٰ التفسير.

وقلت من قبل إن الخيانة لا تكفي أيضاً لتفسير هٰذا السلوك لأَنَّهُ أكبر من الخيانة بكثير. الخيانة يقوم بها مواطن، ولٰكن من غير المقبول أن يكون المسؤول خائناً، فكيف بالسُّلطان ذاته؟! إنَّهُ أمرٌ فوق الخيال. فوق قدرة العقل عَلىٰ التَّخيُّل والاستيعاب. أمر خارج كل القوانين.

أخلاق التخلف

الفرق
بيننا وبينهم نقطة

أخلاق التخلف

لم ألجأ كثيراً إلىٰ مقارنة أخلاق التَّخلُّف بأخلاق التَّحضُّر لأني آثرت التركيز فقط عَلىٰ أخلاق التَّخلُّف، ولٰكن في مثل هٰذه الموضوعات التي تتناول أحد شقي مشكلة لا يمكن أن تكون هناك مقارنات من نوع ما، ولذلك لم تخل بعض فصول الكتاب من مثل هٰذه المقارنات.

وعَلىٰ أي حال فإنَّ عذرنا في ذٰلك هنا أن المقارنة قائمة بطبيعة الحال بَيْنَ ألاق التَّخلُّف وأخلاق التَّحضُّر حَتَّىٰ ولو لم أعلن ذٰلك عَلىٰ نحو مباشر. إنَّ محض الحديث والتَّفصيل في أخلاق التَّخلُّف هو بطبيعة الحال كلام عن الوجه المقابل أو النقيض لأخلاق التَّحضُّر.

هٰذا كلام المنطق إلىٰ حدٍّ كبير. إلا أنَّ ذٰلك لا يعني أنَّ أخلاق التَّخلُّف هي الوجه المقابل أو المعاكس تماماً ودائماً لأخلاق التَّحضُّر، والعكس صحيح تماماً، فإنَّ الحديث عَلىٰ أخلاق التَّحضُّر لا يعني أنَّ أخلاق التَّخلُّف هي الوجه المقابل أو المعاكس تماماً ودائماً.

النَّفي عن التَّماميَّة والكماليَّة بالإطلاق وليس عن المقابلة بوجه العموم. يصحُّ بمعنى من المعاني، مع بعض التَّحفُّظات، القول إنَّ أخلاق التَّخلُّف هي الوجه المقابل أو المعاكس لأخلاق التَّحضُّر، والعكس يصحُّ بالطَّريقة ذاتها. هنا مقابلة وضدية بَيْنَ الوجهين عَلىٰ نحو العموم، ولٰكنَّهَا ليست تقابليَّة مرآتيَّة؛ الوجه بالوجه، والفعل بالفعل، والسُّلوك بالسُّلوك... هناك خصوصيَّات

اجتماعيَّة وعرقيَّة ودينيَّة وعقيديَّة تجعل دائماً وبالضَّرورة التَّباينات والتَّمايزات موجودة حَتَّىٰ في المتقابلات التَّامَّة التَّقابل. التَّقابليَّة في أخلاق الحضارة وأخلاق التَّخلُّف تقابليَّة في المبدأ وليست في الكم ولا الشَّكل ولا الصُّورة، ولا ينفي ذٰلك أن تكون بعض الكم أو الشَّكل أو الصُّورة في بعض الأحيان أو بعض الموضوعات والجوانب...

لن نقيم مقارنة بَيْنَ أخلاق التَّخلُّف وأخلاق التَّحضُّر هنا، وإنَّما سنعرض لأمرين وحسب، نوعاً من المقارنة في وجه من أوجه أخلاق التَّخلُّف والتَّحضُّر عَلىٰ صعيد الدولة أو لنقل مجازاً: أخلاق الدَّولة، أخلاق السُّلطة، كوننا في كل ما سبق كان حديثنا مركزاً عَلىٰ الأخلاق الفردية والجمعية والعقلية الجمعية، وإن بالضرورة تعرضنا مراراً لموقع السُّلطة وأثرها وأخلاقها.

سأبدأ بعنوان لهٰذا الفصل ذاته الذي عنوان تعليقات قليلة منسوبة إل الشيخ **عائض القرني** تحت العنوان ذاته: الفرق بَيْنَنا وبَيْنَهم نقطة. وهي متداولة عَلىٰ نطاق واسع منذ وقت غير قليل.

الفرق بيننا وبينهم نقطة .

هم الغرب... ونحن العرب... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

هم يتفاهمون بالحوار... ونحن بالخوار... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

هم يعيشون مع بعضهم بعضا في حالة تحالف... ونحن في تخالف... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

هم يتواصلون بالمحابرات... ونحن بالمخابرات... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

عندهم المواطن ١٠٠% مزبوط... وعندنا ١٠٠% مربوط... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

عندهم المواطن وصل الحصانة... وعندنا ما زال في الحضانة... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

عندهم إذا أخطأ المسئول يصاب بالإحراج... وعندنا يبدأ بالإخراج... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

عندهم يهتم الحكام باستقلال شعوبهم... وعندنا يهتم الحكام باستغلال شعوبهم... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

المستقبل لأبنائهم غناء... ولأبنائنا عناء... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

هم يصنعون الدبابة... ونحن نصنع الزبابة... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

هم لا يخافون من الدبابة... ونحن نخاف من الذبابة... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

هم يتفاخرون بالمعرفة... ونحن نتفاخر بالمغرفة... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

هم يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار... ونحن ما زلنا شعب الله المحتار... والفرق بَيْنَنا نقطة (.).

الحقيقة وإن انتهت تعليقات المقارنات هنا إلا أنها قابلة للامتداد، ويمكن لأي واحد أن يضيف إليها الكثير في المبدأ ذاته؛ مبدأ النقطة.

وإذا عَلىٰ مبدأ النُّقطة فقط يمكن إضافة الكثير فكيف لو انطلقنا في المقارنة من غير قيود أو ضوابط في الشَّكل؟

ستكون المسألة طويلة بكل تأكيد. بل إِنَّهُ حَتَّىٰ مع الاقتصار عَلىٰ مبدأ النقطة فإنَّ هٰذه المقارنة السريعة تكشف الكثير من الفرق بَيْنَ أخلاق التَّحضُّر وأخلاق التَّخلُّف، بَيْنَ عقلية التَّحضُّر وعقلية التَّخلُّف.

هٰذا الغرب الذي يزيدنا بنقطة في الكتابة يزيدنا اليوم بأنه أمة حضارة ونحن أمة خسارة. وفي هٰذا الفارق بَيْنَ عقلية الحضارة وعقلية التَّخلُّف فارق بَيْنَ الحياة والموت، بَيْنَ المجد والذل... ولا أطيل.

العرب أمة واحدة بلغة واحدة ودين واحد وتاريخ واحد... شاء من شاء وأبى من أبى، هٰذه حقائق فوق التاريخ. ولٰكنَّ هٰؤلاء العرب أكثر من عشرين دولة، الحدود بَيْنَها حديديَّة؛ أسوار كهربائيَّة، أسلاك شائكة، من يعبر الحدود غير النظامية يقتل فوراً، ولا يمكن لأحد أن يعبر الحدود النظامية إلا بإجراءات طويلة عريضة، وأختام وتحقق وتحقيق في أغلب الأحيان، وتفتيش حَتَّىٰ اللباس الداخلي...

العرب أمة واحدة في أكثر من عشرين دولة لا يوجد بينها من علاقات إلىٰ التآمر عَلىٰ بعض، وتحريض الشعوب عَلىٰ بعضها بعضاً... ولا يستطيع عربي أن يزور بلداً عربيًّا إلا بإجراءات معقدة... والاستثناء في بعض الأحيان موجود، ولٰكنَّ بجواز سفر وفيزا أو أختام، وإن لم توجد الفيزا فلا بُدَّ من جواز السَّفر والأختام... ناهيك عن أن العلاقات الاقتصادية بَيْنَهم شبه منعدمة... لا يعرفون تصدير شيء إلا البترول والمواد الخام، وكل العرب يستوردون كل شيء من غير العرب، ولا تستورد دولة عربيَّة من دولة عربيَّة شيئاً إلا من باب ذر الرَّماد في العيون، والضَّحك عَلىٰ الذقون.

العرب أمَّةٌ واحدةٌ بلغةٍ واحدةٍ ودينٍ واحدٍ وتاريخٍ واحد، فيما في الوقت ذاته فإنَّ الغرب ليس أمَّة واحدةً وإنما هو أمم وأعراق وتاريخ من الصِّراع فيما بَيْنَهم، وهم وإن كانوا عَلىٰ دين النصرانيَّة كلهم إلا أَنَّهُم عَلىٰ مذاهب متخالفة إلىٰ حدِّ التَّناحر.

ومع ذٰلك ومنذ ما كان يُسمَّىٰ الانقسام إلىٰ المعسكرين الشرقي والغربي، الاشتراكي والرأسمالي كان المواطن العربي الذي يذهب إلىٰ أي دولة أوروبية يستطيع أن يتجول في أرجاء دول أوروبا قاطبة الغربية والشرقية من دون أن يضطر إلىٰ إخراج جواز السُّفر من جيبه لأَنَّهُ لن يسأله أحد عن هويَّته أو جواز سفره، عَلىٰ الرَّغْمِ من كل ما كان خلاف وصراع بَيْنَ المعسكرين الشرقي والغربي، ومن البداهة بمكان أَنَّهُ كان ضمن المعسكر الواحد يتنقل بسلاسة أكثر ومن دون أي قيود.

تذكر وارجع قليلاً إلىٰ الوراء، أنا أتحدث عن المواطن العربي الذين يذهب إلىٰ أوروبا ولا أتحدث عن المواطن الأوروبي. يعني ذٰلك لك أن تتخيل كيف يمكن أن يكون الأمر مع ا لمواطن الأوروبي. إذا كان الغريب عن أوروبا يستطيع ذٰلك بهذه السُّهولة فالمواطن الأوروبي لن يجد أي قيد أي أو شرط أو عقبة في تنقله بَيْنَ سار دول أوروبا بسلاسة أكثر مما يمكن أن يكون للمواطن الغريب عن أوروبا.

تذكر أيضاً وارجع قليلا إلىٰ الوراء أنَّ لهٰذا الكلام في أثناء الانقسام الأيديولوجي العسكري بَيْنَ شرق وغرب، ولك أن تتخيل مَدَىٰ المرونة في هٰذا الشأن بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. من قبل أصلا لم يكن هناك حدود بَيْنَ الدول الأوروبية فكيف بعد الوحدة الأوروبية التي تقوم في مبدئها عَلىٰ إلغاء الحدود؟!.

لم يكن حال أوروبا في عصور تخلفها بمختلف عن حال العرب اليوم. تلكم حقيقة يجب أن تكون حاضرة في البال حَتَّىٰ تتوازن الأحكام.

ولٰكنَّ ما لا بُدَّ منه بيانه في الختام الآن هو أَنَّهُ مهما كانت الأحوال والظروف فإنَّه لن يوجد ما يبرر هٰذه الخيانة من السلاطين، ولا حَتَّىٰ من الشعوب، لا يوجد ما يبرر السلوكات الأخلاقية الساقطة في فترة التَّخلُّف... لا من السلطة ولا من الأفراد.

وفي الوقت ذاته فإنَّ الحقيقة التي بدت واضحة في سياق الكتاب كله أنَّ السلطة هي المسؤول الأول ورُبَّما الأول الأخير عن التردي. لا نسقط اللوم عن الأفراد، ولٰكن تبقى السلطة هي المسؤول الأول.

المؤلف في سطور

. الدكتور عزت لسيد أحمد.

. أديب وباحث في الدراسات الفلسفية.

. إجازة/ دبلوم/ ماجستير/ دكتوراه في الفلسفة في كليَّة الآداب بـ جامعة دمشق.

. دبلوم تأهيل تربوي من كليَّة التربية بـ جامعة دمشق.

. مدرس ثمَّ أستاذ مساعد ثمَّ أستاذ في قسم الفلسـفة بجامعة تشرين منذ عام ١٩٩٤ حَتَّىٰ ٢٠١٢م.

. رئيس قسم الفلسفة في جامعة تشرين منذ عام ١٩٩٨م إلى ١٩٩٩م.

. رئيس قسم الفلسفة في جامعة تشرين منذ عام ٢٠٠٦م إلى ٢٠١٠م.

. محاضر في قسم المناهج في كلية التربية بجامعة دمشق. ١٩٩٣. ١٩٩٨م.

. محاضر في المعهد الوطني للإدارة منذ تأسيسه عام ٢٠٠٣م حتى ٢٠١٢م.

. محاضر في كلية العلوم السياسية بجامعة دمشق عام ٢٠٠٦م. ٢٠٠٧م.

. عضو مساهم في تحديث قانون تنظيم الجامعات بسوريا عام ٢٠٠٥/٢٠٠٦م.

. عضو لجنة (برنامج قطاع تطوير التعليم العالي في سوريا. UHES). ٢٠١٠م.

. باحث زائر في جامعة مارتن لوثر بألمانيا. ٢٠١٠م.

. أستاذ دراسات عليا زائر في قسم الفلسفة بالجامعة الأردنية. ٢٠١٣م. ٢٠١٤م.

. أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة بولاند أجاويد. تركيا منذ ٢٠١٥م.

. مرشح لوسام الشخصيات الأكثر تأثيراً في العالم عام ٢٠١٣م في كلية ويلدنبرج الدولية.

. شارك في الكثير من المؤتمرات العلمية محاضراً ومنظماً في عدد من الدول العربية والأجنبية.

. شارك في تحكيم الكثير أطروحات الماجستير والدكتوراه في عدد من الدول العربية والأجنبية.

. شارك في تحكيم عشرات الأبحاث العلمية للمجلات والمؤتمرات والمراكز البحثية.

- أعاجيب السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- أسس التوثيق؛ نحور نظرية عربية في التوثيق . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- إشكالية تعدد المناهج . دار العالم العربي . عمان . ٢٠١٧م.
- آفاق التغير الاجتماعي والقيمي؛ الثورة التقانية والتغير القيمي . الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- آفاق التمدد الفارسي . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم؛ مأزق الأمم المتحدة في النظام العالمي الجديد . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.
- أَنا صدى الليل (شعر) . دار الأَصالة للطباعة – دمشق – ١٩٩٥م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م.

- أنا والزمان خصيمان . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م.
- أُنشودة الأَحزان (شعر) – دار الأصالة للطباعة – دمشق . ١٩٩٦م.
- انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . ط١: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . ط٢: ٢٠٠١م.
- انهيار إنسانية الإنسان . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار أوهام فوبيا الإسلام .كيملك يايانلان . قيصرية . تركيا . ٢٠١٧م
- انهيار الشعر الحر – دار الثقافة – دمشق (ط١) ١٩٩٤م. . دار الفكر الفلسفي . دمشق – (ط٢) ٢٠٠٣م.
- انهيار دعاوى الحداثة – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.
- انهيار قيم المعارضة العربية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- انهيار النظام العربي . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- انهيار وهم الحوار بَيْنَ الحضارات . إيبرو للطباعة . بيروت . ٢٠١٦م.
- الأيديولوجيا والعلم؛ العلاقة بَيْنَ الأيديولوجيا والعلم والفهم . دار فن وعلم . طرابلس . ٢٠١٧م
- البحيري؛ عبقرية وغربة وجمال . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق – ١٩٩٤م.
- بشرية عمياء عرجاء؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.

- تصنيف المقولات الجمالية . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- تطوير التعليم العالي؛ الواقع والمشكلات والمقترحات . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- تفجيرات أيلول وصراح الحضارات؛ الولايات صنعت الحدث لتصنع المستقبل . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.
- تمهيد في علم الجمال . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- التهكم وفن الإضحاك عند الجاحظ . دار العالم ا لعربي . عمان . ٢٠١٧م.
- الثوار والمعارضة والثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة ثورة في كل شيء . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- الثورة السورية والمؤامرة الكونية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة السورية وأزمة القيادة . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الثورة السورية والحلول التهريجية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الثورة السورية والنظام السوري . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الجمال وعلم الجمال . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- الحب والإبداع والحياة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٧م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الحرب على الدولة الإسلامية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- حوار في الذاكرة بيني وبنيتي . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- خطر نجاح الإسلام في السلطة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) – ن . م – دمشق – ١٩٩٣م.

- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟ – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- رئيس وأربعة فراعين .. دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- سكر مالح (قصص) . حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٦م.
- شظايا على الجداران (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- صوت السوط (مسرحية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٦م.
- الطريق إلىٰ الإبداع؛ نحو نظرية جديدة . إيبرو للطباعة . ٢٠١٦م.
- عادل العوا؛ أخلاقه وفلسفته الأخلاقية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٧م.
- العالم على البركان . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- العالم في مواجهة الإسلام . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- عالم مجنون؛ المضحك المبكي في السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- العدوان الأمريكي على سوريا؛ حقيقة الموقف الأمريكي من الثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- العدوان الروسي على سوريا؛ مشروع إبادة الشعب والحضارة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- العرب أعداء أنفسهم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٤م.
- العرب جثة تنهشها الكلاب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- عفيف البهنسي والجمالية العربية . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- علم الجمال الإعلاني . دار حدوس وإشراقات . عمان/ الأردن . ٢٠١٣م.

- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- عواد من دون عود (قصص) – دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م.
- الغرب الجاني على نفسه . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون – دار طلاس – دمشق – ١٩٩٣م.
- فلسفة الفن والجمال عند الجاحظ . دار العالم العربي . عمان . ٢٠١٧م.
- فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٦م.
- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٥م.
- في انتظار حمقاء (قصص قصيرة) . دار الأَصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٥م.
- فيلا وعلبة حلاوة (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- قراءات في فكر عادل العوا . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م.
- قضايا الفكر العربي المعاصر . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- كاسيوس لونجينوس: الرائع؛ بحث جمالي فيمة الروعة . ترجنة ودراسة تقديم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- كتابة البحث؛ المفاهيم والقواعد والأصول . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- الكل يطلق النار على السوريين وثورتهم . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.

- لا تعشقيني (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- لبنان والمشروع الأمريكي؛ قراءة في الأزمة اللبنانية وتداعياتها . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م.
- لبنان بَيْنَ حربين؛ الأزمة اللبنانية بَيْنَ الداخل والخارج . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- اللعب مع الكلاب (قصص قصيرة) . دار فن وعلم . طرابلس . ٢٠١٧م.
- لوحات من ألم الثورة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- ماذا لو تبعثر الكلام! . دار فن وعلم . طرابلس . ٢٠١٧م.
- مختارات من دارسي التراث العربي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- المدخل إلى عصر النهضة العربية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- المذاهب الاقتصادية الكبرى . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٨م.
- المذاهب الجمالية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- ملحمة المجانين (ملحمة شعرية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠١م.
- من يسمم الهواء؛ ظاهرة السرقة في عالمي الفكر والأدب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.

- نزيف العقل العربي؛ رؤية في هجرة الكفاءات العربية . العالم العربي . عمان . ٢٠١٦م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
- النظام الاقتصادي العربي؛ واقع ومشكلات ومقترحات . ط١: دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م. ط٢: دار إنانا ٢٠١٠م.
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٤م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا (ط٢) – دار الفكر الفلسفي – دمشق – ٢٠٠٣م.
- همس الهوى (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- وظيفة الفن . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ٢٠١٣م.
- يصغر أمامك الكلم (شعر) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.

المحتويات

. الإهداء ٠٠٥
. مقدمة ٠٠٧
. التَّخلُّف وفلسفة أخلاق التَّخلُّف ٠٠٩
. مقدمة ٠١١
. مفهوم الأخلاق ٠١٣
. الأخلاق الفردية والأخلاق الجمعية ٠١٧
. أخلاق الحضارة وأخلاق التَّخلُّف ٠٢١
. فلسفة الأخلاق ٠٢٥
. التَّخلُّف ٠٢٦
. أرض البصل كلها رؤوس ولكن...! ٠٢٩
. الأَنا الأَعلى أَنا؛ مركزة العالم حول الذات ٠٣٧
. الأَنانية والشطح ٠٤٧
. المبدعون في محارق المخفقين ٠٥٧
. سحق الموهوبين ٠٦٧

. المقلاة وسرير بروكست...! ٠٧٩
. التفكير الخطي؛ هكذا تفكر القرود ٠٨٧
. المتنطعون وعصر الرويبضة ٠٩٢
. خالف تعرف ٠٩٤
. وأنا وأنا وأنا ٠٩٦
. سلبية المبدع أم سلبية المستوعب؟ ٠٩٩
. الشعب المتخلف شعب يعيد إنتاج عبوديته ١١٣
. الوقوف مع الباطل على علم ١٢١
. أخلاق التخلف وتدييك العلماء ١٢٩
. الجوائز ومرفقات الجرائد والسلوك الحضاري ١٤١
. الجوائز الضحك على اللحى ١٤٣
. مرفقات الجرائد والسلوك الحضاري ١٤٧
. الاستقواء بالأعداء على الأشقاء ١٥١
. الفرق بيننا وبينهم نقطة ١٦١
. المؤلف في سطور ١٦٩
. صدر من كتب المؤلف ١٧٠
. المحتويات ١٧٧

BACKWARDNESS ETHICS

By

Prof. Dr. Ezzat Assayed Ahmad

180 Pages

First edition

Tripoli 2018

All rights reserved

• • •

Geriye Doğru Etik

Yazar

Prof. Dr. Ezzat Assayed Ahmad

180 Sayfa

İlk baskı

Trablus 2018

• • •